محمود السعدني

رحلات ابن عطوطة



دار الشروق

رحلات ابن بطوطة

طبعة دار الشروق الأولى ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٣٠٢٦/ ٢٠٠٩
ISBN 978-977-09-2729-6

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com

محمود السعدني

رحلات ابن عطوطة

دار الشروق

المحتويات

وعلى كل لون

رحمة الله وبركاته على عمنا القديم ابن بطوطة، كان هو الآخر صحفيًّا، وإن كان ليس عضوًا بنقابة الصحفيين فلم يكن في زمانه صحافة ولا يحزنون، كان الشاعر هو الصحفي، وكانت غاية الشعر هي مدح الملوك والخلفاء والولاة وعساكر المرور!

وكان الشاعر الذي يرفع قصيدة جيدة من نوع «وسمعا بالعشارى إذا ذهبنا، بأرض الله في كل زمان» يحصل على مكافأة تساوي الهبرة التي هبرها توفيق عبد الحي من بيع اللحوم الفاسدة والكتاكيت الميتة..

ولكن عمنا ابن بطوطة لسوء حظه لم يكن شاعرًا، كان شديد الملاحظة، عظيم الصياغة، شديد الاهتمام بالناس وبالحياة، شديد الشوق للبلاد والعباد، وكان متوقد الذكاء وصاحب مفهومية يفهم الأشياء وهي طايرة وأحيانًا قبل أن تطير!

ولكن اسم ابن بطوطة كان عيبه، فبطوطة من البط، والبط طائر لا يطير، شديد الكسل، شديد الوخم، غاية رحلته لفة في بحيرة، أو نزهة في بركة أو بلبطة في ترعة، حسب الأحوال والتساهيل..

والست والدتنا ـ الله يرحمها ـ كانت تصرخ دائمًا في وجهي: «والنبي تقعد كده وتنبط».

ورواد قهوة المعلم حسن عوف في الجيزة يقولون من باب الحكمة: «مش فلان اتبطط»، يعني انكسر، يعني ضاع في الكازوزة.. يعني اتخرب بيته يا ولداه!

المهم أن ابن بطوطة لم يكن اسمًا على مسمى، ولذلك أنا رأيت بعد كل هذا العمر الطويل أن أصحح هذا الخطأ الرهيب، وأطلقت على نفسي لقب ابن عطوطة على وزن ابن بطوطة باعتبار أن كلًّا منا له رحلات وجولات وسفريات على اختلاف المكان والزمان..

أنا إذن ابن عطوطة، وهو من العط، والإنسان يعط حتى يزهق، وأحيانًا يعط حتى يغمى عليه، وبعض الناس تعط وتعط حتى تضيع..

وزعيم العطاطين في العالم العربي كان عمنا زكريا الحجاوي، وكان يعط من شارع إلى شارع ومن قهوة بلدي إلى قهوة أفرنجي، ومن قهوة بهوات إلى قهوة مجاذيب، ومن كفر إلى نجع، إلى ضيعة، إلى بلد، إلى شاطئ، إلى رصيف، ثم انتهى به المطاف إلى أن ذهب وعط في الدوحة وداخ هناك السبع دوخات... ومات غريبًا.. يا كبدي!

وتولى إمارة العط من بعده عمنا عبد الرحمن الخميسي وهو رجل عطاط من قبائل عطيط، وهي قبائل احترفت العط في أرجاء الإمبراطورية أيام مجد العرب والعروبة والسحابة التي كانت تمطر في كل مكان فيعوط خراجها إلى خزائن الخليفة. وفي النهاية استقر عمنا عبد الرحمن الخميسي في موسكو.. ومات غريبًا هو الآخر.. وا مصيبتاه!

وهناك سبب آخر جعلني أطلق على نفسي لقب ابن عطوطة؛ وهو أن الست والدتنا ـ الله يرحمها ـ كانت تقول: «ما تهمد بقى يا بني وكفاية عط». كما أن صديقي فتحي بحيري كان يزفر زفرات ساخنة ويقول: «لو ربنا يتوب علينا بقى من العط». وكان فتحي ضجرًا من كثرة الانتقال من مهنة إلى مهنة ومن سبوبة إلى سبوبة، ومن شغلانة إلى أخرى، وكان يرجو لو يستقر مرة واحدة في حياته ويستريح، وقد استخدم كلمة العط هنا في معنى الدوخة التي.. «إلهي ما يحكم بها على عدو أو حبيب!»

هذه إذن هي المصادر التاريخية لكلمة العط ولكنها كلها مصادر غير رسمية، وإن كان بعضها مدونا في كتب سيد أبو دراع (وهو فنان شعبي غير محمد أبو دراع)، وكانت له أغنية مشهورة منذ نصف قرن من الزمان:

يا للي انكتب عليك العط

اصبر دا الرب مش ناسي

أما المصادر الرسمية لكلمة العط، فقد أحجمت عن الخوض فيها خوفًا من وجع الدماغ، ولكني توكلت على الله وفتحت

قاموس ابن مهروش الزلباني (وهو عالم حجة في اللغة والنحو)، ويقول ابن مهروش في باب عط:

«العط من العطوط، وتجمع عطاطيط، ويقال: عط فلان أي ترنح وكاد يميل، ويقال: شجرة عطاطة أي رقيقة الأغصان هشة الأوراق تئن تحت نسمات الريح وتميل».

يقول الشاعر الجاهلي:

عططت لما ابتلاني الدهر من نكد

ورحت أمشي على درب من الهرد

أي أنه من شدة الهم والغم كان يمشي فيميل، كأنه يسير في شارع من شوارع الجيزة التي امتلأت بالمطبات والحفر بالرغم من تصريح المحافظ بأن كل شوارع الجيزة كالشعر الحرير على العينين يهفهف ويرجع يطير!

وفي لسان العرب لعمنا ابن منظور: «العط هو غبوق اللبن من الخمر، وسمي عطًّا لأن من شربه مال وترنح».

ويقول الشاعر الجاهلي حمزة الجيزاوي:

عططنا فدخنا فاسقني مـن عـطـك الـمـدهـون

وهو بيت من قصيدة يعتبرها البعض من المعلقات لأنها وجدت معلقة على شباك مديرية الأمن بمحافظة الشرقية. وقيل إنه كتبها بعد علقة محترمة أكلها الشاعر حمزة الجيزاوي بعد قضية سرقة بالإكراه ارتكبها الشاعر واستخدم فيها مطواة قرن غزال.

ولكن الدكتور لويس عوض أكد عندما سألته أن كلمة عط أصلها لاتيني، وهي في الأصل ألط (Alt)، وحرّفها العامة إلى علط. ثم أصبحت عط بمرور الزمان. وهي أيضًا وردت في أغلب الأعمال الأدبية العظيمة على مر التاريخ (هذا كلام الدكتور)، فالعراف الأعمى ترسيس وقف يصرخ بالصوت الحياني أمام الملك الجبار ويقول: لقد حفيت قدماي من كثرة الألط، أي من كثرة العط، أي من كثرة المشي؛ إذ لم يكن هناك أتوبيسات في ذلك الزمان!

والعبقري شكسبير أبرز الكلمة في عبقرية متناهية في شخصية مسرحية شهيرة هي شخصية عطيل. وإذا نظرنا إلى الكلمة ـ هكذا يقول الدكتور ـ اكتشفنا أنها تكون من مقطعين: عط ويل، ولكن شكسبير كان يقصد بها عط فقط وأضاف إليها بقية الكلمة هربًا من المحاكم، فقد كانت أسرة عط لا تزال تعيش في قرية جاكسا من أعمال مدينة طنجة على شاطئ المضيق!

ويقول الناقد الإنجليزي الشهير هابين كوربص (والكلام للدكتور لويس): إن شكسبير أراد أن يفسر الشخصية ويحللها، فعطيل رجل عطاط مغربي كذاب يفتح الكتاب، عط من بلاده إلى بلاد الأغراب وذهب في العط إلى بعيد فأحب ديدمونة وعط أكثر فذهب إلى قبرص وعط أكثر وأكثر فقتل ديدمونة، بوشاية من ياجو الشيطان. إن نهايته المأساوية كانت نتيجة لعطه الذي ليس له غاية.

وهناك أيضًا ـ الكلام للدكتور أيضًا ـ الراهب عطا الله الذي راح يضرب في الأرض بلا غاية صارخًا في الناس: استعدوا ليوم القيامة. وساح في الأرض عشرين عامًا بدأها من فلورنسا إلى أنقلونزا ، إلى كلومانزا، حتى استقر به الأمر أخيرًا في بني مزة، وهو الاسم

اللاتيني لما يعرف الآن ببني مزار وأثناء عطه في أنحاء الصعيد الجواني دخلت في قدمه شوكة فتقرحت قدمه وتقيحت، ومات ميتة الأبطال! وسمي عطا الله لأنه كان يعط في الأرض باسم الله.

ولكن المجمع اللغوي المصري لا يوافق على رأي الدكتور لويس عوض ويقول في نشرته السنوية: إن كلمة عط كلمة عربية استخدمتها قبيلة فزارة أيام الجاهلية وجاءت على لسان شيخها: «نحن قوم إذا عططنا لا نميل» أي أنهم شديدو البأس، أقوياء الشكيمة ومهما بلغ العط فإنهم لا يتعبون. وعن حجاج بن مزجح عن زوابة بن مشلح عن أشجع بن وهدان المخزومي أن شيخ قبيلة فزارة قال: خرجنا في ليلة قمرية إلى وادي العقيق، فمر بنا عرجون بن مستلف الزمان وكان معه غلام يقال له أعلط، فدعوناهما للنزول فأقبل الغلام وأبطأ عرجون ابن مستلف الزمان، فقلنا للغلام: ويحك ما يحبس مولاك؟ قال: كان عند صاحبه في مكان يقال له الخنفار، فأكل القسب (التمر اليابس) والجلجلان (نبات مالح) ويبدو أن سيدي أكل كثيرًا فأصابه العط، فسألناه: وما هو العط؟ (وكان الغلام يتكلم بلغة أهل حمير) فقال: العط يقع للإنسان عندما ينهدُّ منه الحيل وتتشخشخ منه الركبتان، فيقال على الرجل الذي ألم به هذا العارض: رجل عط، فإذا أمعن المرض فيه واستفحل قيل: رجل معطوط؛ ويقال للرجل العطاط إذا كان ثقيلًا يخافه الناس وينفرون من لقائه، ورجل عطعاط للكريم السخي..

قال الأمهر بن مشهور في مدح حاتم الطائي:

وعطعاط بأعلى حديدة إذا نصبت ... لم تضرب الحد بالنصب

طعمنا على سغب فيدعى بالقرى   لعطاط أدام الطعم من سغب!

هذه إذن هي مصادر العط، عرضناها عليكم كما عرفناها، وحرصنا على أن نذكر كل المصادر، شعبية ورسمية وأكاديمية وكلاسيكية، وعلى كل لون، ونستطيع الآن أن نبدأ رحلتنا، رحلة العط التي ابتلانا بها الله وأخذت من جلودنا راقات، ومن أعمارنا سنوات وسنوات، ولكن قبل أن نبدأ رحلتنا؛ هناك ملاحظة لا بد من إثباتها هنا، حتى لا يظلمنا قارئ أو يفتري علينا ناقد. فالفرق بين رحلة ابن بطوطة، ورحلة العبد لله، هو الفرق في الزمان وفي المكان أيضًا.

عندما بدأ عمنا ابن بطوطة رحلته الميمونة على صهوة بغل، كان الوطن العربي يسترخي في هدوء، الحدود سداح مداح، والبساط أحمدي، والمزاج رايق، والرءوس مرفوعة والأعلام أيضًا، والظهور مشرعة والسيوف أيضًا. وكان أمير المؤمنين يعطس في القاهرة فيقول له من في الدار البيضاء: يرحمكم الله. وكان العربي يسافر في أرجاء الإمبراطورية بلاد الله لخلق الله، فلا حدود ولا جوازات ولا جمارك بالمصري أو كمارك بالعراقي، أو مكوس كما يسميها البعض في بلاد بني عدنان. وكان السفر في بلاد العرب على أيام عمنا ابن بطوطة أعزب ليس له جواز. ولم تكن هناك تأشيرة خروج، ولا تأشيرة دخول، ولا إذن عمل. وكان الدينار العربي يساوي عشرة دولارات هندي، باعتبار أن الهنود الحمر كانوا هم أصحاب الدولار في ذلك الزمان! كان هذا هو حال العرب في زمن عمنا ابن بطوطة..

أما الآن في زمن العبد لله.. فلا حول ولا قوة إلا بالله. الجمارك في كل مكان من بلاد العرب لا تنقض إلا على العربي، ولا تفتش إلا من يبدو من سحنته أنه من نسل قحطان! وصاحب الشرطة في بلاد العرب الجديدة لا يقتفي إلا أثر العرب الأغراب، ولن تجد في سجون العرب أحدًا من صنف الألمان أو الطليان، فما بالك بصنف الإنجليز أو الأمريكان؟!

ستجد مصريًّا مسجونًا في سجن العراق، وعراقيًّا مسجونًا في سجن سوريا، وسوريًّا مسجونًا في سجن الخليج، ومغربيًّا مسجونًا في سجن ليبيا، وليبيًّا مسجونًا في سجن تونس، وفلسطينيًّا مسجونًا في كل السجون!

وإذا كان عمنا ابن بطوطة قد خرج على ظهر بغلته من طنجة إلى تلمسان بالجزائر، ومن تلمسان إلى صفاقس بتونس، ومن صفاقس إلى برقة في ليبيا، ومن برقة إلى الإسكندرية في بر مصر، وقد قطع المسافة كلها على ظهر البغلة، فلم يتوقف إلا لينام ولم يتمهل إلا ليستريح. إذا كان عمنا ابن بطوطة، قد قطع المسافة كلها آخر راحة وآخر انسجام ، فالسفر من القاهرة إلى ليبيا اليوم محنة ولا محنة الحسين بن علي في يوم كربلاء.

ومع أن الجغرافيا تقول: إن مصر وليبيا دولتان متجاورتان، إلا أن الجغرافيا السياسية تفرض على العبد لله إذا أراد السفر إلى ليبيا أن ينتقل أولًا من القاهرة إلى اليونان، وكل إنسان حر يركب الطائرة أو يركب البحر. فإذا ركب الطائرة فقد يخطفه زعيم منظمة برمهات الأصفر، وسر الخطف أنه زعلان مقهور ويشعر بإحباط ويقدس الحياة الزوجية، ولكنه يريد أن ينتقم من أجل كامب ديفيد ولا

يمكن القضاء على كامب ديفيد، إلا بذبح عشرة صعايدة، وإحراق جثث خمسة جدعان من المنوفية، وخنق امرأة وطفلها من بني سويف. ولذلك فخطف الطائرة وإحراقها هو واجب قومي، وهو نضال يستوعب هموم الأمة، ويصوغها ثم يعيدها إليها حتى لا تصبح عصية عن استيعاد هموم المرحلة! ولكن يظل الحل مؤجلًا حتى يتم العثور على حل عن طريق الثورة المستمرة لهذا المأزق التاريخي العصيب! وحتى إذا وصلت الطائرة إلى اليونان فسيأخذ الطائرة إلى طرابلس. وسيعلم الله وحده ما الذي سيحدث له أثناء التفتيش في الجمارك والمكوس، وزمان ذهب عمنا ابن بطوطة إلى الخليج، وقطعه ذهابًا وإيابًا، ولا سؤال ولا جواب، ولا تحقيق ولا تفتيش، ولكن الآن.. في زمن العبد لله، يحتاج المسافر إلى الخليج إلى «كفيل»! وزمان كان الكفيل للقاصر واليتيم، أما اليوم في زمن العبد لله، فهو للصحفي والمستشار والطبيب. دليل على أن أولاد يعرب قد صاروا في هذا الزمان يتامى ومشردين!

لشد ما تغيرت الأحوال منذ عهد عمنا ابن بطوطة، إلى عهد أخيكم ابن عطوطة، الذي داخ مثل عمنا زكريا الحجاوي السبع دوخات، ولذلك ستكون رحلة ابن عطوطة على مقاس التأشيرات التي حصلنا عليها، وإذن العمل الذي سمح لنا به، ولأننا انشغلنا أثناء الرحلة في العثور على تأشيرة والبحث عن كفيل، ولأن أغلب وقتنا ضاع بين الجمارك والجوازات وشرطة الحدود ولم يبق إلا أَقَلُّهُ للكتابة.

وفي أيام عمنا ابن بطوطة لم يكن يصدع دماغه شيء، فلم تكن قد نشأت بعد إذاعة صوت العرب، ولا إذاعة صوت العروبة، ولا إذاعة

حوض البحر الأبيض المتوسط، ولم يكن حزب البعث المشتراكي قد اهتم بالمشكلات الكثيرة، التي تتعلق بالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة في التعبير عن إطار ومضمون المصالح الحيوية الحقيقية، بقدر الاهتمام الزائد والملحوظ بهذه التقاليد التي اقترنت بهذا التفكير الواعد بأمة عربية واحدة ذات رسالة خالدة!

ويا اللي انكتب عليك العط

اصبر دا الــرب مـش ناسي

ولم يكن في زمن عمنا ابن بطوطة قد تم طبع الكتاب الأخضر المسخسخ حيث الشمولية الكونية التي تبدأ وتنداح وتترحرح وتتموج وتتسع على ثلاث مراحل: عربيًّا في البداية، إسلاميًّا بعد ذلك، كونيًّا في النهاية..

ويا اللي انكتب عليك العط

اصبر دا الــرب مـش ناسي

ولم تكن اتفاقيات كامب ديفيد قد عرفت طريقها إلى الحياة بعد، والسبب أن ديفيد نفسه لم يكن له وجود، كان ديفيد في زمن عمنا ابن بطوطة يشتغل في اصطبلات مولانا السلطان، وكان ميمون اليهودي يشتغل طبيبًا في قصر السلطان، كان اليهودي مجرد مواطن في الإمبراطورية العربية، يشكر ربه آناء الليل وأطراف النهار لوجوده في بلاد العرب بعيدًا عن أوربا، حيث محاكم التفتيش وأفران حرق البشر عمَّال على بطال. في ذلك الزمان البعيد السعيد لم يكن في بلاد العرب ألف تنظيم وتنظيم، وكلها تهدد وتتوعد،

وتعد بالتحرير والتعمير، وينتهي أمرها جميعًا، إلى اغتيال صحافي في روما، وتلميذ في لندن، وصايع في اليونان، أما التحرير فستجد تحريرًا كثيرًا في صحف النضال التي تصدر في الخارج، أما التعمير فما أحلى التعمير والتعميرة على أي رصيف في وطننا السعيد ومن شاطئ الخليج إلى شاطئ المحيط..

ويا اللي انكتب عليك العط

اصبر دا الـــرب مــش ناسي

ولم يكن في زمن عمنا ابن بطوطة أفلام من إنتاج علي حبلص، ولا فوازير من إخراج عبده أبو كتاف، ولا مطربون كهؤلاء الذين سدوا علينا عين الشمس في هذا الزمان. ولم يكن في بلاد العرب أيام عمنا ابن بطوطة شركات من نوع منوفكو، وعبد العاطكو، وعبد العزيزكو. وكان الفلاحون في زمانه إنتاجهم وفير وخيرهم كثير، وموائدهم ممدودة للعابر وابن السبيل. وقد لاحظ عمنا ابن بطوطة هذا الأمر، فدون في رحلاته يقول: والمسافر في بر مصر لا يحتاج إلى حمل زواده معه، لأن خير الريف وفير ومبذول وعلى طول الطريق.. الآن صارت فراخ الفلاحين هي فراخ الجمعية، وسمن الفلاحين هي السمن الهولندي، وعيش الفلاحين يخبز في الفرن الأفرنجي..

ويا آسفاه على الفرق الرهيب بين زمان العبد لله، وزمان عمنا ابن بطوطة!

كان أبطالنا في زمانه، من نوع المظفر قطز، والظاهر بيبرس، والناصر صلاح الدين، واليوم صار أبطالنا الساحر الخطيب، والنجم

محمود يس، والسيد العقيد، والأخ المناضل، والمجاهد الأكبر، وطويل العمر.

أسماء وألقاب، ونياشين ورتب وسيوف وصولجانات.. وهلمه..

ويا اللي انكتب عليك العط

اصبر دا الـرب مـش ناسي

ولأنه، سبحانه مش ناسي، أسأله اللهم أن يكفينا شر العط، وأن يبعد عنا المخبرين والبصاصين، وأن ينقذنا من شر العسس والناس اللبط، وأن يحفظنا من شر أولاد الحرام وأولاد الحلال أيضًا، وأن يشملنا بعطفه ورحمته حتى نجوب كل بلاد ولد عدنان.. آمين يا رب العالمين..

يا عيني على طنجة!

رحلة العبد لله بدأت في قلب العواصف، كانت قمم الجبال في الجزائر تشتعل بالنار، وكان الملك محمد الخامس عائدًا لتوه من المنفى، وتونس على عتبة عصر الاستقلال، وكانت شعارات القومية مرفوعة، ورايات الثورة خفاقة، وطبولها تدق في كل مكان.

ولقد بدأت رحلتي من القاهرة إلى روما، ومن روما إلى مدريد، ومن مدريد إلى طنجة، لأنه كان صعبًا علينا نحن العرب أن نخترق أرض العرب، ففي ليبيا كانت هناك ثلاثة جيوش أجنبية: إنجليزية وفرنسية وأمريكية، والحدود بين مصر وليبيا مقفولة، وفي ليبيا خائن اسمه المشلح، أو المتشلح، أو الشلحاوي، يشرف على بناء سور مثل سور برلين يعزل مصر عن ليبيا، وكان دخول ليبيا بالنسبة للمصري أصعب من دخول إبليس الجنة، وكان على العبد لله إذا أراد الذهاب إلى المغرب أن يمر عبر أوربا.. وهكذا كان.

وانتظرت شهرًا في مدريد للحصول على تأشيرة دخول المغرب، وكنت محظوظًا لأنني كنت أول بني آدم في العالم يحصل على التأشيرة رقم ١ لأول حكومة بعد الاستقلال في

المغرب، وطرت في الليل من مدريد على متن طائرة إسبانية، طائرة مبطوحة ومجروحة وكما لعبة الأطفال، راحت تتأرجح وتتمرجح، وخيل إليَّ وأنا في الجو أتشقلب وأتمقلب أنني أخطأت التقدير، وبدلًا من أن أركب طائرة بمحرك واحد ركبت طائرة بجناح واحد، ولولا العيب والفضيحة لوقفت وسط الطائرة ألطم الخدود وأشق الجيوب على طريقة ستات الجاهلية! المهم.. نزلنا طنجة في الليل وخرجنا من المطار سبهللة، فلا تأشيرة ولا تكديرة، فقد كانت طنجة مفندقة، وأبوابها مفتوحة على جهنم الحمراء، وفيها سبع حكومات وسبعة حكام، وخمسون ألف عربي ومائة ألف أجنبي كلهم جواسيس! وفي طنجة مائة نوع من العملة، وعشر لغات، والكل فرحان وسعيد وقابض ومسرور، إلا صنف العرب.. آخر فقر وآخر بهدلة! عندما ذهبت إلى فندق المنزه على شاطئ المضيق، نظر موظف الفندق إلى العبد لله باحتقار، وقال: لا توجد أماكن هنا، وعندما بدا على سحنتي أنني لم أفهم، أعاد عليَّ الكلمات بغلظة، فلما كلمته بالإنجليزية انحنى كرقم ٦، وضرب تعظيم سلام، وقال: عفوًا سيدي ظننتك من أهل البلاد، وخصص لي غرفة فاخرة على البحر، وحمل حقائبي بنفسه إلى الغرفة.

كانت طنجة تضيق بكل البضائع من كل أنحاء الأرض، وكانت تموج بكل الأصناف والأشكال من صنف البني آدمين، فقد كانت طنجة دولية.. لا قانون ولا أخلاق ولا تقاليد، المهم الربح من أي طريق وعن أي طريق! قادني ولد هندي في اليوم التالي وسار بي عبر حارات وأزقة ومسالك، ودخلنا من باب سميك وهبطنا بضع درجات تحت الأرض، ووصلنا إلى سرداب شاهدت فيه عدة

أشخاص، كانوا فيما مضى من صنف البني آدمين، والكل مسطول ومنسجم وشارد مع أحلامه أو مع أوهامه، وحلقات الدخان فوق الرءوس تنعقد وتنفرط، آخر سعادة وآخر ضياع، وجلست مع القوم وهم يدخنون «الكيف»، أتفرج على الوجوه المجدورة والأيدي المعروقة، وخيبة الأمل التي تركب جمل، وللأسف كل الرواد كانوا من صنف العرب، ولكن صاحب الماخور خواجة من بلاد البرتغال، وخدم الماخور من بلاد الهند، والحشيش تركي ولبناني وهندي ومغربي! وعلى شاطئ طنجة رأيت أجمل نسوان الأرض، يعرضن على المكشوف وعلى المفتوح، وكل شيء ظاهر وباين وعلى عينك يا تاجر، والست الحشمة تغطي نفسها بطابع بريد، والشاطئ نفسه كالجنة، ورود نابتة من الأرض وورود ماشية على الأرض، وفلوس كموج البحر تأتي وتروح، وأطعمة تلقى للأسماك تكفي سكان الصومال، وخمور تراق على الأرض كأنها أمطار الصيف في السودان، وكل العرايا على الشاطئ خواجات، وكل الخدامين عرب مغاربة، والكل يرطن بلسان واحد، بفعل الاستعمار فقد العرب لسانهم وتكلموا بلسان الأعداء!

كانت طنجة بحق ـ أيام حكم الخواجات ـ هي بلد التجارة والدعارة، ولكن الجاسوسية كانت أربح تجارة على الإطلاق. وكان معي في الطائرة التي أقلتني إلى طنجة ولد مصري صميم، مغامر وعلى موعد مع الموت في كل لحظة، قلبه ميت لا يعرف الخوف، وكان عين مصر في شمال إفريقيا، وكان هو الجسر بين الثورة المصرية والثورة الجزائرية، الولد اسمه عبد المنعم النجار، وكانت وظيفته الرسمية، ملحق مصر العسكري في مدريد، وترقى

بعد ذلك فصار سفيرًا لمصر في باريس، ثم سفيرًا لمصر في بغداد، وأعتقد أنه يعيش في مصر على المعاش.. لقد طواه النسيان، ولعل هذا النيسان هو ثمن تلك الأيام المجيدة العظيمة الماضية. وبسبب عبد المنعم النجار تبعنا منذ أول لحظة عشرة جواسيس يعملون لحساب عشر جهات، وحذرني عبد المنعم النجار طالما أنا في طنجة، فالكلام ممنوع، والذهاب إلى مجاهل طنجة ممنوع، والحديث مع الغرباء ممنوع، لأن النجار نفسه جاء إلى طنجة في مهمة من أجل الثورة العربية في الجزائر: كان في طريقه لشراء أجهزة لاسلكية تحتاج إليها الثورة، وكل شيء حاضر، الفلوس حاضرة والأجهزة موجودة، ولكن البائع الإيطالي رفض تسلم الثمن بالبيزتا الإسباني، وأصر على أن يتقاضى الثمن بالدولار، ولذلك دخنا دوخة الأرملة العجوز ونحن نحول البيزتات إلى دولارات، وجاء مندوب الثورة وحمل الأجهزة في شاحنتين ومضى في ظلام الليل إلى المجهول! وانتهت مهمة النجار وعاد إلى مدريد، وبقيت وحدي وسط غابة من الوحوش أحذر أن أتكلم، أحذر أن أتمشى، أحذر أن أتفرج، وأغلقت حجرتي على نفسي لأنجو من المعارك والمهالك، ولكن منظر مندوب ثورة الجزائر لم يفارقني لحظة، اسمه الحركي إدريس، وهو أشبه ما يكون بقائد ألماني عظيم، الرأس محلوق تمامًا، الملامح محددة فيها شيء من عنف المقاتل ورقة الفنان، صامت لا يتكلم كأنه لا يعرف ما هو الكلام، إذا سألته لا يجيب، لم أسمع صوته إلا مرة واحدة عندما ودعته على حدود طنجة، قلت له: قريبًا نلتقي في الجزائر، فهتف قائلًا: الله كريم!

كانت معركة الجزائر هي أشرس معارك العرب ضد خواجات

أوربا المتغطرسين، كانت بلاد العرب في رأيهم هي مزرعة أوربا.. لا تزيد! وكان جيش التحرير الجزائري في واقع الأمر، هو جيش الانتقام الذي قام ليثأر من سنوات الذل والجوع، ولم يجمع العرب في تاريخهم الحديث على شيء قدر إجماعهم على ثورة الجزائر، ولم يلتف العرب حول شيء التفافهم حول ثورة الجزائر، وحظ العرب والجزائر أن الطقس كان مناسبًا، والريح كانت مواتية!

وإدريس ذهب إلى الجزائر، وأنا حبيس الفندق لا أبرحه، في انتظار من سوف يحضر ليصحبني معه عبر صحراء وجدة إلى قمم الجبال حول تلمسان، وفجأة دق الباب وانخلع قلبي، فلم يكن هناك مفر من فتح الباب، واكتشفت أنه على الباب أنثى تحشر نفسها في بنطلون، كان ذلك منذ ثلاثة وثلاثين عامًا ولم أكن قد رأيت بنطلونًا على ستات المشرق، وقالت الست المتبنطلة: «ألق عندك لوكيد؟»، وقلت للست: أفندم؟ أعادت الست الكلمات نفسها بالحروف نفسها وباللكنة نفسها، قلت في نفسي: أعوذ بالله من شر الشيطان الرجيم، وأغلقت الباب ودخلت، ولكن لأن العبد لله مهذب فقد أغلقت الباب على نفسي، وعليها! واستفسرت من الست واستفهمت حتى فهمت، فقد كانت تريد عود «كبريت» كما يقولون في مصر، وعود «شخاط» كما يقولون في العراق، وعود «ثقاب» كما قال عمنا ابن مالك صاحب الألفية التي عطلت لغة العرب وسجنتها في زنزانة لها قضبان من ألف بيت من أسخف الشعر! وحكت الست قصتها، وهدأت واطمأنت للعبد لله وسرت سرورًا عظيمًا عندما قلت لها: إنني تاجر باكستاني أبيع الخز والحرير، وإنني في رحلة تجارة وشطارة عبر بلاد الله وخلق الله،

وقالت البنت: أنا مغربية من طنجة، بدأت خادمة في بيت أحد الطليان. وكان الولد الطلياني تاجرًا وفاجرًا، لأن تجارته كانت في صنف الأعراض، والبنت الخدامة لأنها كانت مدورة ومكورة فقد وقع اختياره عليها لتقديمها كبضاعة جديدة في الأسواق، وعندما حدث المقسوم والمعلوم، بكت البنت وشكت، وذهبت إلى حاكم طنجة الإسباني، ولكنها اكتشفت أن الطلياني للإسباني كالبنيان المرصوص يسند بعضه بعضًا، ومع أن البنت كانت قاصرًا فحادث من هذا النوع يعتبر جريمة حتى في بلاد الطليان، ولكن ما دام الجاني خواجة والضحية عربية فلا بأس ولا جناح، فهكذا كانت الأحوال في بلاد العرب منذ أكثر من ثلاثين عامًا من الزمان: أهل البلاد يستعبدون في أرضهم وصياع أوربا هم أصحاب الأمر والنهي في بلاد الأعراب.

هكذا كان الحال في بلاد العرب قبل أن يولد قراء هذه السطور من الشباب، ولكن الحمد لله لأن المولى العزيز أنقذ الجيل الجديد من البلاوي التي عاصرها جيلي.. الذي أعتقد أنه أغلب جيل منذ الجيل الذي شهد دخول ابن عثمان وغزوه لبلاد العرب من حلب إلى صنعاء. ما علينا، فقد احتملنا كل المصائب وتجاوزنا كل العقبات وانتصرنا وانهزمنا، وعلى الجيل الجديد أن يواصل المهمة ليجعل الحياة أجمل مما كانت وأفضل مما كانت، هذا دوره الحقيقي، وما عداه مجرد خزعبلات!

ويا ميت حلاوة على البنت المغربية، أحلى بنات الأمة العربية وأكثرهن رقة، وأقربهن إلى بنات لندن وحسناوات باريس، وفي عيون المغربية رغبة، وفي جسدها نتوءات واختناقات وانبعاجات،

معمولة حسب مقاييس ومواصفات وطبقًا لخطة موضوعة. وأنا ـ والحق أقول ـ أحببت المغربية من أول نظرة، ليست مغربية بالاسم أو بالرسم، لكنها المغربية على الإطلاق!

ولقد تمنيت يومًا، أن أقضي السنوات الأخيرة من عمري في مدينة على شاطئ البحر المتوسط اسمها تطوان. والناس في تطوان خليط من أصل عربي وإسباني، وسبحان من جمع الشامي على المغربي فأنتج هذا العصير الخرافي من صنف النسوان! والبنت من دول إذا نزلت الشاطئ سترى جلدها مشدودًا، سبحان الذي أبدع، كأنه جلد طبلة مشدود على وهج النار، فلا هبشة ولا خدشة، ولا عضة ولا رضة، ولا ترهلات ولا كرمشات. وليس الجسد وحده هو سر سحر المغربية، ولكنها الروح أيضًا، فما أشد جرأة المغربية وما أعظم تحررها، بالرغم من اختفاء الوجه أحيانًا تحت الحجاب! والرجل المغربي ما أكرمه، في السلم فنان وفي الحرب ولا أسد جوعان، وفي حرب أكتوبر مثلًا ادعت إسرائيل أن الجنود المغاربة الذين كانوا يقاتلون على الجبهتين أكلوا بعض عساكر إسرائيل أحياء، وهو ادعاء كاذب بالطبع، ولكنه يعطيك فكرة عن الرجل المغربي إذا شمر ساعده للقتال.

وتجولت في أنحاء المغرب بزي مغربي ولهجة مصرية، وعشت أيامًا بين طنجة والقنيطرة وسلا والرباط والدار البيضاء وفاس ومكناس وخنيفرة ووجدة وتطوان، وأستطيع أن أقول وأنا مطمئن البال أنه ليس أجمل من أوربا إلا المغرب، وليس أجمل من المغرب إلا جنة رضوان. ولكن «أوفقير» الشيطان حوَّل الجنة يومًا ما إلى جهنم الحمراء، وجعل من الأسود الضواري أرانب برية تظهر

في الظلمة وتختفي في النهار، وحول المغرب إلى منطقة طرد بعد أن كانت منطقة جذب.. لعنة الله على الحاكم الظالم لأنه أشد وطأة على البني آدمين من الوحش الجوعان! والظلم قديم قدم الإنسان، وزمان كان الحكام ظلمة، ولكن وسائلهم كانت بسيطة.. عندها هرب عبد الرحمن الأحدب من عساكر العباسيين بعد كسرة بني أمية في معركة الزاب، لم تستطع العساكر أن تلحق به، وتركوه يعبر النهر أمام أعينهم، ثم اختفى بعد ذلك فلم يعثروا له على أثر، والسبب أن السلطان لم يكن لديه سيارات نجدة ولا طائرات هليكوبتر ولا أجهزة لاسلكي، ولم تكن له مباحث عامة، ومباحث أمن دولة، ومباحث جنائية، ومخابرات، وقيادة قومية، وقيادة قطرية، وأحزاب تشتغل بالتجسس. ولم يكن لدى السلطان القديم عساكر حدود وأجهزة للتنصت ومراقبة على التليفونات. كان السطان مجرد بني آدم مثل غيره من البني آدمين، والفرص متساوية بين السلطان ومن يعارض السلطان، المهم ألا يقبض عليك بيديه، وإذا لم يفعل فأنت إذن حر وحياتك في أمان!

وفي تاريخ مصر مثلًا، رجل اسمه أحمد بوشناق، كان خادمًا لدى علي بك الكبير، وأفشى سرًّا لسيده فاستدعاه علي بك الكبير ذات مساء، وسأله في خبث: ما جزاء من يفشي السر؟ وأجاب أحمد بوشناق: الموت، وقال علي بك الكبير وهو يتنهد ارتياحًا: أنت حكمت! ثم خلع عليه الخلعة ومد له السماط فأيقن بوشناق أنه هالك، فاستأذن سيده في أن يتوضأ ويصلي فأذن له، فلما خرج إلى فناء الدار قفز على حصانه، وانطلق به هاربًا من دار علي بك الكبير في حارة الداودية في شارع محمد علي قاصدًا وجه بحري.

ورغم جبروت علي بك الكبير، ورغم دولته المهيبة، لم يستطع أن يعثر على أحمد بوشناق واختفى الهارب سنوات طويلة، ثم ظهر بعد ذلك واليًا على عكا وباسم آخر.. أحمد باشا الجزار! مسكين أحمد باشا الجزار، لو أنه يعيش في عصرنا وغضب عليه السلطان وفر هاربًا، لظفر به السلطان ولو كان في بلاد الواق واق.

ويا أسفي على المغرب العربي في ذلك الزمان؛ فالكلام عربي واللكنة فرنسية، والبنت المغربية ترتدي العباءة ومن تحت العباءة الميني جيب، والرجل المغربي يتكلم العربية ويفكر بالفرنساوي. وأنا عشت أيامًا كثيرة في المغرب أيام سطوة «أوفقير» وعنفوانه، وشعرت كيف يعيش الإنسان مرعوبًا وهو يتنزه، مرعوبًا وهو يعمل، مرعوبًا وهو يأكل، مرعوبًا وهو يهضم، مرعوبًا وهو نائم، مرعوبًا وهو مرعوب!

وإذا كنت أنا الغلبان العدمان قد شعرت وتعلمت، فأنا لا أعتقد أن أحدًا من السادة الطغاة قد فهم الدرس أو تعلم! ولا يزال يعيش في أرجاء الأرض العربية مائة «أوفقير» و«أوفقير»، وعذرنا الوحيد أن درس الماضي يؤكد أن النتائج التي انتهت إليها أحداث الأمس هي نفسها التي ستتحقق في المستقبل! حكمة إلهية لكي تنمو الحياة وتستمر بالرغم من أنوف الطغاة. ولقد كنت محظوظًا عندما ألقت بي الظروف في مدينة خنيفرة، ونمت ليلتي هناك عند القائد مهروق زعيم قبائل البربر، وفي لحظة واحدة تبخرت كل معلوماتي التي قضيت أعوامًا كثيرة في تحصيلها، فالمدرسة الفرنسية تزعم أنهم من الجرمان، وأنهم عبروا أوربا حتى وصلوا إلى الأندلس، ثم عبروا المضيق واستقروا في شمال إفريقيا. والمدرسة الألمانية

تقول: إنهم من اليمن، وإنهم عبروا آسيا إلى أوربا ثم انحدروا إلى الشمال الإفريقي.. مدارس وعلماء وكتب وفنون ومتاحف ومعارض كلها شغل أوربا؟ وككل أشغال أوربا فهي أشياء لامعة وملعلطة وفلصو! وفي ضيافة القائد مهروق أدركت أن البربر عرب أقحاح من نسل قحطان! وقد تكون المدرسة الألمانية أقرب إلى الحقيقة ولكنها ليست الحقيقة كاملة. إنهم عرب من بطون وأفخاذ قبائل قديمة، تعرضوا للإرهاب والغزو والغدر فآثروا الهجرة قبل الإسلام. ونحن عرب هذه الأيام لا نعرف كثيرًا عن عرب الجاهلية. لا بد أن البربر هؤلاء خرجوا في تغريبة مثل تغريبة بني هلال، ولذلك سترى البربر في واحة سيوه في صحراء مصر، وستراهم على حدود موريتانيا، وسترى بعضهم في تشاد وفي السنغال. وأغلب الظن أنهم لم يذهبوا إلى أوربا ولم يبصروها على الإطلاق، بل إنهم انحدروا من اليمن إلى صحراء سيناء إلى المحروسة مصر إلى الشمال الإفريقي. ولكن، لأن أوربا مصرة، ومصممة على أن يكون كل شيء وأي شيء عبر حضارة أوربا، فلا بد أن يكون البربر قد ذهبوا إلى أوربا!

والحمد لله الذي جعل بتوع أوربا لا يصرون على أن سيدنا عيسى ابن مريم سافر وتجول في أوربا، وأن موسى استقر بعض الوقت مع أخيه في أوربا! الحمد لله الذي جعل بتوع أوربا لا يزعمون هذا الزعم! أما البربر فدليلي معي أفقأ به عيون علماء أوربا، وهل هناك دليل أسطع من أن أعظم ثوار الشمال الإفريقي كانوا من صنف البربر، وكانت غايتهم العروبة ورايتهم الإسلام: طارق بن زياد كان بربريًّا، ومصطفى بن بولعيد أعظم شهداء ثورة الجزائر كان بربريًّا،

وبين طارق وبولعيد ـ وعلى بُعد المسافة بين القرن السابع والقرن العشرين ـ ستجد مئات من أبطال العروبة كلهم من جنس البربر، وما عدا هذا من روايات وحكايات فكلها تفانين أوربية، وتحشيش خواجاتي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويا قوة الله على المغرب..تمشيت أفرنجي في أرجائه لمدة شهر أتسكع على شاطئ المحيط، أتمشكح على شاطئ المضيق، أرنو بعينين دامعتين إلى الشاطئ الآخر في الأندلس، كانت لنا هناك يومًا ما دولة وصولة، وكان أجدادنا الميامين يعيشون هناك في عز وعزة، ثم تغلب عليهم حب الرياسة، فتقاتلوا بالحراب وبالسيوف وبالفئوس، فلما تكسرت تجاذبوا بالشعور، ثم نهشوا لحوم بعضهم بعضًا بالأنياب والضروس! وبكى آخر ملك عربي في الأندلس وهو يغادر الشاطئ الأوربي إلى الشاطئ الإفريقي، فقالت له أمه ساخرة: «ابكِ كالنساء على مُلك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال». ما أبلغ حكمة الأم العجوز لابنها المتهالك المتهافت! فقد الأرض، وفقد العرض، فراح يبكي كالنساء.. ملعون أبوه!

درس القرون الماضية لم نتعلمه، ولم نستفد منه شيئًا، عادت ريمة لعادتها القديمة، انفتاح وانفشاخ وتكالب وتصالح، ولكن أحدًا من السادة الأباعد لم يجد أما تصرخ في وجهه: «ابكِ كالنساء على أرض لم تستطع أن تحافظ عليها كالرجال». ومن مراكش إلى وجدة، أنا قطعت أرض الله، عليها وحواليها مزارع ممدودة، وخيرات مبذولة، وكنوز مدفونة، وجو ولا جو أوربا، وخضرة ولا الخضار الطازج في أسواق بلدنا، وناس ما أحلاهم وما أشهاهم. ولكن الخيبة القوية من دمشق إلى الإسكندرية أنني حاولت الكلام

مع أحدهم فلم يفهم ماذا أرغب، أنا العربي ابن العربي أتكلم مع أخي العربي فلا يعي، ويتكلم معه الخواجة فيلبي ويجري كالنحلة. ولكن عذري أنني الآن في وجدة، والجزائر على مرمى حجر مني، والرجل الذي تحدثت معه ولم يفهم «جزائري» صار أبكم تحت حكم الاستعمار. ولكن ها هي الجزائر أخيرًا، وغدًا ندخل الأرض التي أكلت من الجثث حتى شبعت وشربت من الدماء حتى ارتوت. ووجدت نفسي أهتف رغمًا عني،: «يا خفي الألطاف نجِّنا مما نخاف!».

نهاية التيوس!

وعندما وصلت إلى وجدة رأيت بصيصًا من الأمل: معسكر الثورة الجزائرية وعلم الجزائر يخفق عليه، وأبناء الجزائر يقبضون على السلاح للكفاح في عزيمة وحوش الغاب. ونمت ليلة في معسكر «العربي بن مهيدي»؛ شهيد من شهداء الثورة التي أكلت من الرجال حتى شبعت، وشربت من الدماء حتى ارتوت! وكان معي عمنا العجوز الصحافي الكاتب العاشق الأبدي لتراب مصر المحروسة، محمد عودة، وكان ثالثنا في الغرفة الصغيرة التي احتوتنا أحد سيوف الثورة وقائد جيشها الباسل الكولونيل بومدين؛ الرئيس بومدين بعد الاستقلال. كان بومدين يدخن باستمرار، وعيناه اللتان تشبهان عيني الصقر تحدقان عبر أسلاك المعسكر إلى حدود الجزائر. كان يتكلم عن مستقبل الجزائر كأنه يقرأ في كتاب مفتوح. ولم يكن في الحجرة شيء إلا الأثاث الذي يستعمله الجنود، وعلى الحيطان مجموعة صور متناثرة: صورتا جنرال جياب وماوتسي تونج، وتتوسطهما صورة عبد الناصر. كان بومدين يحلم بجزائر عربية واشتراكية. كان يرى أن الوطن العربي مهيض الجناح لأن المغرب العربي في أسوأ حالاته. كان يردد بيت شعر للمتنبي:

ولست أرى في عيوب الناس عيبًا

كنقـص القادريـن علـى التمـام

مصيبة العرب الكبرى أن لديهم الإمكانات لتحقيق الأمجاد نفسها التي حققها أسلافهم، ولكنهم بدلًا من الغزوات في سبيل الله، راحوا يغزون في سبيل المتعة، وتحولت القادسية إلى فريق لكرة القدم! ومرج دابق وقع في أسر اليهود! وصلاح الدين أصبح محلًّا لبيع أجهزة التليفزيون في القاهرة! والظاهر بيبرس لم يعد أحد يذكره إلا شاعر الربابة! وقادة بعض البلاد مشغولون الآن بإقامة الحد على الفقراء من المسلمين، ومتفرغون بعد ذلك للصلاة في أندية لندن، والصيام في مواخير باريس! كأنما حدود الله من نصيب الفقراء، أما الأغنياء فهم بالطبع.. أحباب الله!

مجموعة ما أنفقته قبائل بني كلب على موائد القمار في لندن ذات عام بلغ عشرة ملايين جنيه. وقبائل بني كلب هم الرعاع من قبيلة بني كليب، أما شيوخ بني كليب أنفسهم فقد أنفقوا على موائد القمار مليار جنيه! هذا عدا وجوه الإنفاق الأخرى التي اكتشفها بنو كليب: من أول الويسكي إلى الكافيار، إلى الهزار، إلى لهط اللحم الأبيض. وهي تكاليف ما أنفقها أحد من قبل وعلى مر العصور، ومن الليلة بتاعة شمشون وحتى الآن!

ولكن معسكر العربي بن مهيدي يقف وسط الأرض الخراب كمشعل نور لعرب المستقبل! عرب يرفعون اسم الله، وينشرون عدله ويمهدون سبله، ويقيمون حدوده على أنفسهم قبل الغير!

وكان معسكر العربي بن مهيدي كحمام لتطهير النفس قبل أن

نجتاز حدود المغرب إلى أرض الأبطال والشهداء.. الجزائر. ولا أنسى لحظة وقفت فيها على الحدود أخلع نعليَّ حتى لا ألوث أرض العزة والثورة!

وعبرت حدود الجزائر. وسجدت أطبع قُبلة على أرضها. التراب معجون بدم الشهداء، والهواء يضيق بمئات الألوف من الأرواح التي ماتت لتحيا الجزائر. ولقد لفت نظري وجود بنات يحملن السلاح مع الثوار. ولم أكن قد رأيت لدى عرب الشرق بنات يحملن السلاح قط! هذه إذن ثورة رائدة لأنها كسرت جدران السجن المفروض على صنف الحريم العرب، فنصف الأمة كان معطلًا، وها هو الباب الآن بدأ ينفتح.. ولكن بقدر!

ولقد كانت على أرض الثورة في الجزائر ثلاث فصائل، وثلاث وجهات نظر: حزب مصالي الحاج؛ وهو زعيم وطني تقليدي عيبه الوحيد أنه كان لحظة اشتعال الثورة قد أصبح خارج الزمن. ولذلك اندهش كثيرًا لأن مجموعة من الشباب قد تجرءوا وأعلنوا الثورة دون استئذانه، وهو من هو! هو مصالي الحاج.. الذي عنده تبدأ الجزائر وإليه تنتهي! ولقد ألف جيشًا للتحرير مهمته الأولى والأخيرة هي تحرير الجزائر من الفرنسيين ومن جيش التحرير أيضًا! ونشبت معارك الهول بين الجيشين، وانتهت بتصفية مصالي الحاج وجيشه، ومات الرجل يرحمه الله دون أن يدرك سر القوة الكامنة في هذا الجيل الجديد الذي أشعل الثورة وانتصر فيها.

ثم الحزب الشيوعي الجزائري، وهو فرع من الحزب الشيوعي الفرنسي. ولقد أعمته جدران النظرية التي حبس داخلها، فلم ير

زهور الجزائر الجديدة التي رفعت رأسها تبحث عن شمس الحرية، وأصمت أذنيه فلم يسمع صيحات القومية التي راحت تتصاعد في سماء الوطن العربي باحثة في ماضيها البعيد عن مستقبل أفضل لها، ولم يشعر برياح العروبة تهب ساخنة عبر الحدود والسدود، تقتلع كل من يتحداها أو يقف في وجهها. ولذلك رفع شعار «تحرير الجزائر يبدأ من تحرير باريس» و«الاستعماريون الفرنسيون يستعمرون فرنسا والجزائر معًا». وكان معنى ذلك في بساطة هو أن تحرير الطبقة خير من تحرير الوطن. ولم يكن لدى شعب الجزائر استعداد للاستماع إلى مثل هذا الكلام، وكيف يمكن أن يصغي شعب لكلام من هذا النوع، وقد استبيح دينه وأرضه وعرضه، ولم يبق لديه شيء لم يستبح؟! ولذلك انطلق الرصاص في صدور أعضاء الحزب الشيوعي الجزائري ولقوا جزاء الخونة! خطأ في التحليل، نعم، ولكن أدى إلى مأساة مروعة!

وكان الاتجاه الثالث هو الاتجاه الصحيح، وهو الذي انتصر، وقد بدأت الثورة ببيان صغير إلى شعب الجزائر، وبخمس عشرة بندقية صيد، ولكنها انتهت بالقضاء على فرنسا الجنرال لاكوست، وحطمت الجمهورية الرابعة. ومن أجل هذه النهاية السعيدة، خاضت الثورة في بحار من الدم. وكما أكلت الحرب زهرة شباب الجزائر، أكلت خيرة بنيها، ولكننا، رغم كل شيء، ربحنا الجزائر المستقلة العربية المجيدة. ولقد استمعت إلى وردة الجزائرية أول مرة داخل أرض الجزائر، وبالتحديد في مكان ما على قمم التلال المطلة على تلمسان الجميلة. كان الثوار يحتفظون لها بأغنية على شريط، أغنية حزينة تقول: «كلنا جميلة، كلنا فداها».

وتعرفت على أدب الجزائر وأنا أنقل الخطى بين القرى المتناثرة في الجبال وهزتني روايات محمد ديب، ولكن رواية «التيوس» لإدريس الشرايبي هي التي أصابتني بالحمى؛ رواية تكشف عن مأساة المغرب العربي، بعمق وبأستاذية؛ وهو روائي عالمي بكل مقاييس العالمية. إنه شتاينبك الأمريكي، وسمرست موم الإنجليزي، وديستوفسكي الروسي! وهو قمة لا أعتقد أن أحدًا من كُتاب العرب الروائيين وصل إليها حتى الآن. عيبه الوحيد أنه يكتب بالفرنسية، وهو العيب الذي من أجله قامت الثورة على فرنسا. فلم يكن إدريس الشرايبي وحده هو الذي كتب عليه أن ينسى لغته وأن يتكلم لغة فرنسا، بل كان هذا مصير شعب الجزائر كله.

فقد أرادوا الجزائر، شاطئًا للاستحمام، ومزرعة للكروم، ومكانًا استراتيجيًّا للقواعد العسكرية، وسوقًا لتصريف البضائع، وحظيرة لتربية الأيدي العاملة الرخيصة والمنتجة! فهل نجحت فرنسا؟ الواقع يقول لا، لأنك تريد وأنا أريد، والله يفعل ما يريد!

كانت رواية إدريس الشرايبي عن شاب مغربي عاطل، كان رافضًا كل شيء حوله، ولكنه لم يكن قادرًا على تغيير أي شيء حوله! ولذلك بصق على الأرض التي ينتمي إليها، واستقل باخرة متشردة عبرت به البحر إلى فرنسا. وفي فرنسا أراد أن يتعلم، لكنه بعد فترة أدرك أن التعليم ترف لا يقدر عليه إلا الأثرياء، فهجر الجامعة واشتغل عاملًا في مصانع الخمور. ثم انتقل إلى الميناء، وعمل بعض الوقت في جمع المحاصيل من الحقول. لكنه ضاق بالعمل، عندما اكتشف أنهم يستأجرون قوته البدنية الهائلة لقاء ما يحفظ له حياته. فآثر التسكع في شوارع باريس، يعمل أحيانًا في

علب الليل، وأحيانًا يشترك في سرقة صغيرة، حتى اهتدى عن طريق الصدفة إلى العمل الذي كان يتوق إليه: تعرف إلى سيدة فرنسية عجوز كانت مرحة وراغبة في المتعة وثرية في الوقت نفسه، وكان هو فحلًا وقادرًا على إشباعها طوال الوقت. وحققت له الوظيفة الجديدة نوعًا من الاستقرار كان يفتقده، كما ضمنت له كأس خمر معتقة على مائدة عشاء فاخر كل ليلة، وأيضًا أجرًا ثابتًا هو أضعاف أضعاف ما كان يتقاضاه عن أعماله السابقة في المصانع وعلى أرصفة الميناء وفي الحقول!

وأحيانًا كانت تحدثه نفسه بالثورة على الوضع الذي تردى إليه، لكنه كان يكتم هذا الصوت المنبعث في داخله، فلماذا الثورة وهو على أي حال يؤدي عملًا وطنيًّا؟! فهذه المرأة الشمطاء هي فرنسا ذاتها، وهو يمتطي فرنسا كل ليلة! وعندما تصبح المرأة العجوز في ذروتها، وتتأوه بصوتها الرفيع المسلوخ، تتردد على لسانها كلمات «سيدي» و«عفوك» و«أنا خادمتك»! عندئذ ينشرح صدره، ويبتهج فؤاده.. لقد هزم فرنسا وأذلها، وهو جيش تحرير كامل بمفرده، وسلاحه هو بدنه، والنصر معقود له كل ليلة، والهزيمة كاملة لأعدائه، والتسليم دون قيد ولا شرط!

ولكن المكافح العظيم يمرض فجأة ـ يبصق دمًا ويكتشف أنه مريض بداء السُّل. ويكتشف أيضًا. وهو يعاني من الألم ـ أنه كان يحقق انتصارات في معارك جانبية، ولكن السيدة الشمطاء هي التي انتصرت في الحرب، وعندما تكتشف عجزه تلقي به في الطريق. إن المرأة العجوز لها جسد وليس لها قلب. والمهنة التي اختارها تحتاج إلى لياقة، فإذا فقدها فقد الوظيفة! ويهذي وهو يعاني

سكرات الموت على فراش قذر في مستشفى حكومي فقير: هل الطريق الذي اختاره كان هو الطريق السليم؟ ويردد وهو يحتضر: المغرب، المغرب. ولم يفهم أحد من المرضى الفقراء الذين التفوا حوله، هل كان يتحدث عن المغرب وطنه أم المغرب حياته؟ على أيه حال، لم يكن المغرب الذي يتردد على لسانه سوى هذه الأرض البعيدة التي رفضها ذات يوم، وبصق عليها وهو يغادرها إلى الأبد، ولكنها على كل حال هي الصورة التي بقيت في خياله لحظة وفاته!

هذه لمحة صغيرة سريعة عن رواية «التيوس»، وقد انتهت بموت تيس، ولكنها لم تنته من ذاكرتي قط، وعندما سألت ابن عباس ـ مرافقي في رحلتي داخل الجزائر ـ هل إدريس الشرايبي جزائري؟ أجابني الثائر في بساطة: إنه من المغرب، والمغرب من طنجة إلى طبرق.. ليس عندنا مغرب وجزائر وتونس وليبيا، فكلنا مغرب عربي، كما أنكم كلكم من المشرق العربي!

وعشت أيامًا عظيمة داخل الجزائر. واكتشفت السر الذي لم تستطع فرنسا بهيلمانها اكتشافه؛ أن فرنسا تستعمر الجزائر العاصمة والشاطئ كله.. ولكنها لم تستعمر الريف الجزائري قط! هنا في الريف الجزائري، الناس لا يزالون عربًا أقحاحًا؛ اللغة عربية والعادات عربية والسلوك عربي. وفرنسا عندهم هي هؤلاء الجنود الذين يعيشون عند الساحل!

قضيت ليلة في منزل رجل عجوز في قرية تنام في بطن جبل في منطقة القبائل. وفي الليل نهض الرجل فذبح لنا شاة وأوقد

النار وانهمك في إنضاج اللحم. وبدا وجهه المغضن على وجه النار كأنه تمثال قديم لرجل من عهد مضى. وسألني الرجل وقد كشفت ابتسامته عن فم مهجور: هل أنت من مصر؟ ولما أجبته بالإيجاب، قال: زرتها مرة سيرًا على الأقدام! سألته: وكم عمرك الآن؟ قال: ثمانون أو أكثر.. لا أدري على وجه التحديد. قلت: لقد سمعت عنك ثناء كثيرًا من رجال الثورة، فما رأيك في الثورة؟ سرح بعض الوقت، وقال: الثورة.. لقد تأخرت كثيرًا، والسبب أن ثوارنا في الماضي كانوا يتجهون نحو المدينة، ولكن المدينة كانت قد فسدت، أفسدها المستعمرون أنفسهم، ولو أنهم كانوا اتجهوا إلى الريف لقامت الثورة منذ زمن بعيد. ولكنها على العموم اشتعلت الآن، والسبب أنهم اتجهوا إلى الريف، لأن الريف كان مستعدًّا دائمًا للثورة، ولم يكن ينقصه إلا الإشارة ليبدأ الثورة. ولكنها بدأت الآن، ولذلك أنت هنا معنا، ولولاها لما وقعت أعيننا عليك، لأن الملاعين فصلوا الريف عن المدينة، وفصلوا الجزائر كلها عن المغرب. ولكن كل ذلك كان في حكم المستحيل، لأنك لا تستطيع أن تعبر البحر على بسكليت!

وعشت في جزائر الثورة أربعة عشر يومًا أنقل خطواتي في حذر؛ ففي كل شبر من الأرض سقط شهيد. ولكن الأيام القليلة التي عشتها مع الثوار كانت كافية لإقناعي بأن عالم الجزائر القديم سينهار حتمًا على رءوس أصحابه، وأن عالمًا جديدًا يطل برأسه من تحت الأنقاض، ويشق طريقًا في بحر من دماء الشهداء، ويرنو بعينيه نحو المستقبل رغم العواصف الشديدة المحملة بالمشاكل والمآسي والخراب!

والحمد لله العمر امتد بالعبد لله حتى قدر لي أن أدخل الجزائر من أبوابها الشرعية. لقد انتصرت الثورة لأنها قامت لتنتصر، وقامت في الجزائر حكومة وحكومة وحكومة ثالثة. وفي ظل الحكومة الأولى استولى على حكام الجزائر بعض المتمصرين، يهود على موارنة. واستطاع هؤلاء أن يفتحوا دكاكين للنضال على الطريقة التروتسكية المهلبية، ويامّه القمرع الباب! وفي أول عيد من أعياد ثورة الجزائر، تصورت أن العبد لله سيكون من بين المدعوين، ولكن الذي حدث أنهم دعوا جميع أهالي حي شبرا وجميع المناضلين في تنظيم «زمش» ولم يوجهوا الدعوة للعبد لله. أنا! الذي كان أول صحفي مصري يدخل جزائر الثورة، ويكتب عنها حلقات يومية نشرت بجريدة الجمهورية في عام ١٩٥٦. ثم أصدرت كتابًا عن الثورة الجزائرية بعنوان «أرض اللهب والدم»، وكتب مقدمة الكتاب عمنا الكبير محمد عودة. ثم كتبت مسرحية عن ثورة الجزائر اسمها «فيضان النبع» قدمتها فرقة المسرح الحر، واضطلع بأدوار البطولة فيها العبقري الراحل صلاح منصور، والفنان علي الغندور، والفنان أحمد سعيد.. رحمة الله عليه، والفنان عمر عفيفي طيب الله ثراه. يا خيبة النظم العربية حين تقع في أيدي النصابين وبتوع الثلاث ورقات. وللأسف الشديد كان هؤلاء النصابون من مصر. صحيح أنهم ليسوا مصريين، ولكنهم عاشوا حياتهم كلها في مصر، وناضلوا في مصر، ودخلوا السجون أحيانًا في مصر!

وأقسمت أن أزور الجزائر المستقلة ولكن دون دعوة، وأن أذهب إلى تلمسان الجبل. وبالفعل ذهبت إلى الجزائر، وليتني ما ذهبت! كنت قادمًا من قلب إفريقيا في طائرة خاصة تحمل وفدًا مصريًّا عالي

المقام، وحطت الطائرة في الجزائر، فاستأذنت وأخذت حقيبتي ونزلت. وعشت في الجزائر أسبوعًا في حالة اندهاش دائم. كنت أود أن أغني على كل شبر من الأرض وأبوس التراب. وعندما حان وقت الرحيل، ذهبت إلى المطار في صحبة الأستاذ مهابة مستشار مصر الصحفي حينذاك، ووضعت حقائبي في الطائرة المتجهة إلى باريس، وودعت المستشار مهابة، وصعدت سلم الطائرة لأسمع صوتًا يناديني من الخلف يأمرني بالعودة مرة أخرى إلى المطار. واكتشفت أنني مطلوب للتفتيش تفتيشًا ذاتيًّا. وفعلوا بملابسي كل ما يشتهون: مزقوا ياقة قميصي وبطانة جاكتتي وثنية بنطلوني. كان واضحًا أنهم يبحثون عن ورقة أو خطاب. وعندما انتهوا من التفتيش كانت الطائرة قد غادرت المطار إلى باريس. واتصلت بالسفير المصري في الجزائر الذي جاء على عجل إلى المطار. ثم جاء المستشار مهابة أيضًا. ثم جاء مدير المطار، وراح يكرر نفس العبارات «القرعة» التي يجيدها رجال الأجهزة في شرق البحر المتوسط: فالمسألة كلها غلطة، وسوء فهم، وهو يعتذر، ونحن نقبل الاعتذار. وغادرت الجزائر في اليوم التالي إلى باريس.

وبعد خمسة أيام من وصولي إلى فرنسا، عرفت السر وراء تفتيشي في المطار. فبعد خمسة أيام بالضبط من وصولي إلى باريس، سقط نظام الرئيس بن بيللا، وقام نظام جديد برئاسة الراحل بومدين. ويبدو أنه خلال الشهر الأخير من حكم بن بيللا لم يكن هو الذي يحكم الجزائر بالفعل. ويبدو أن الأجهزة التي كانت تأتمر بأمر بومدين قد ارتابت في العبد لله لحظة نزولي من الطائرة المصرية، فهي طائرة خاصة، وعلى متنها وفد مصري على مستوى عال، ولا بد أن كل

ركابها من رجال الأجهزة حتى وإن تخفوا في عباءة الصحافة. ولما كان بن بيللا متهمًا بأنه عميل لعبد الناصر. فلا شك إذن في أنني في مهمة من أجل بن بيللا ولمصلحة عبد الناصر. ولقد تصوروا أنني جئت أحمل رسالة لبن بيللا، وأكد هذا الظن لديهم أنني التقيت بعبد الرحمن شريف مدير مكتب بن بيللا، كما أن مسئولًا مصريًا من السفارة المصرية كان في وداعي عند الرحيل.

إلى هذا الحد تمضي الأمور في العالم العربي، وإلى هذا الحد تنحدر الأمور أيضًا. يا لها من ذكريات حزينة وأليمة تركتها زيارتي الأولى للجزائر المستقلة. ولكنها لم تضعف إيماني لحظة بأن ما فعلته مصر من أجل الجزائر كان هو ما ينبغي أن تفعله بالضبط. لقد أدت مصر واجبها من أجل تحرير الجزائر. الهدف كان تحرير الجزائر؛ وبعد ذلك كل شيء يهون!

ولقد زرت الجزائر بعد ذلك أكثر من مرة، وكلها تمت من جيبي الخاص أو على نفقة الجرائد التي كنت أمثلها. ولم أقبل دعوة لزيارة الجزائر قط.. ولكي أكون دقيقًا وأمينًا، لقد قبلت الدعوة لزيارة الجزائر عندما ذهبت إليها في المرة الأولى، ودخلتها مع ثوار الجزائر. وما زلت أحفظ أجمل الذكريات لهؤلاء الرجال البواسل الذين رافقوني في رحلتي الأولى إلى أرض الشهداء، كما كان مسعود وإبراهيم حرشي و«سي» إدريس. ترى أين ذهب هؤلاء بعد ذلك؟ وأين هم الآن؟ لا أريد أن أستشهد بالمثل المعروف عن الثورة، ومن يشعلها؟ ومن يستشهد فيها؟ ومن يجني ثمارها؟ المهم أن الجزائر قد تحررت واستقلت وصارت جوهرة ثمينة في تاج العروبة. ولذلك هتفت من أعماقي وأنا أغادر الجزائر في آخر زيارة: «يا رب الهمة، الحمد لك، والشكر لك، لأنك وفقت جيلنا في إنجاز هذه المهمة».

وأبو زيد قال لدياب

عندما دخلت تونس أول مرة، أدركت السبب الذي من أجله اختارتها قبائل بني هلال للإقامة فيها خلال التغريبة. فتونس الخضراء هي جنة الشمال الإفريقي، وأهلها أكثر العرب لينًا وأشدهم عذوبة. والعبد لله دخل تونس ذات صيف حار ملتهب، خلع فيه بورقيبة الباي وجلس على دكة الحكم في تونس. والحق أقول إن الباي لم يكن في حاجة إلى من يخلعه، فهو مخلوع منذ البداية! وعندما كان جالسًا على مقعده، لم يكن في استطاعته ولا في سلطته نقل فراش من مكتبه، كان في استطاعته فقط أن يتجول كما يشاء في الحديقة، أما خارج سور الحديقة فلم يكن له حول ولا طول!

وكان بورقيبة زعيمًا تقليديًّا خارجًا من صفوف الشعب. كافح وناضل طويلًا، وتشرد في داخل تونس، ثم نفي في الأرض. وكان من خلفه حزب شديد التنظيم صارم الانضباط. وكان في استطاعة بورقيبة من خلال الحزب أن يشعل النار في تونس بإشارة، وأن يخمد النار إذا أراد بإشارة! ولكن عيب الحزب الدستوري التونسي الجديد أنه كان جديد التشكيل، ولكنه ليس جديد الأفكار. فاكتفى بوحدة

المغرب العربي بديلًا عن وحدة العالم العربي، وقنع بالاستقلال التام، دون أن يقترب من المشكلة الاجتماعية. ولم تكن للحزب إيديولوجية، ولكن مجرد أفكار هائمة، وخطوط غير واضحة، وكلها مأخوذة ومستمدة من خطب الزعيم وكلماته الخالدة!

ولقد أتاحت لي الظروف أن أرافق الزعيم خلال شهر كامل زار فيه كل شبر في تونس، ولم ينس أيضًا زيارة جزيرة «جالطا»، وهي التي نفاه إليها الفرنسيون خلال سنوات الكفاح. وأشهد أن بورقيبة زعيم جماهيري من طراز فريد، إنه من نفس طينة مصطفى النحاس، مع اختلاف المواقف والظروف. سمعته يخطب في مدينة الكاف على الحدود الجزائرية. وتطرق الحديث إلى نظرية رأس المال. وقال بورقيبة جادًّا: «يقولون إن رأس المال هو نتيجة فائض القيمة، وأنا أقول: هذا كذب، فرأس المال هو نتيجة التوفير!»، ولم تضحك الجماهير، ولكنها مزقت أكفها من التصفيق، وبُحت حناجرها من الهتاف للزعيم الخالد! ولقد كان من الممكن لبورقيبة أن يمضي في طريقه وأن يلعب دورًا في حياة العرب، لو أنه أدرك عمق التغيير الذي طرأ على الأمة العربية بعد الحرب العالمية الأخيرة.. لم يستطع بورقيبة أن يلحظ عمق التغيير الذي أحدثته حرب فلسطين، ولذلك ستجده يعلن عن قبوله لمبدأ أيزنهاور، حتى قبل أن يعلن أيزنهاور تفاصيل مبدئه! وسيهاجم حزب بورقيبة وحدة مصر وسوريا قبل إعلانها، كما أنه جاهر يومًا ما بضرورة عقد الصلح مع إسرائيل، وإن كان إنصافًا للرجل أقول: إن ما دعا إليه بورقيبة، في الماضي، ربما كان أقل مما وصل إليه الحال الآن!

ولكن ما الذي شدنا إلى السياسة في تونس؟ وكنا نود أن نسير في موكب البشر، وأن ندخل في زحام الناس؟ السبب في الحقيقة هو مؤتمر سياسي حضرته في صفاقس، وكان هو مفترق الطرق بالنسبة لمستقبل تونس، وأبرز علامة على الطريق. كان المؤتمر ببساطة يطرح خلافًا في الرأي بين بورقيبة ومجاهد تونسي آخر هو صالح بن يوسف. وكان الأخير يرى أن قبول الاستقلال الذي تعرضه فرنسا على تونس والجزائر معًا. وكان يعتقد أن الظروف مناسبة للدخول في معركة شرسة وطويلة ضد فرنسا حتى تنهكها تمامًا، كما حدث في الهند الصينية. وكان واثقًا من أن «ديان بيان فو» عربية على الأبواب.

وكان بورقيبة يرى العكس تمامًا. كان يرى أن نصف استقلال خير من استمرار الكفاح من أجل استقلال كامل. وكان من رأيه أن تونس نصف المستقلة قادرة على حماية الثورة الجزائرية ومدها بالمال والسلاح، محتمية بالعلم الوطني وعضوية الأمم المتحدة! وأطلق بورقيبة عبارته المشهورة: «فلنضع أقدامنا على أي أرض، ثم نمارس من فوقها سياسة الخطوة خطوة». ومن هنا فبورقيبة هو راسم السياسة التي تبناها العزيز كيسنجر وطبقها بعد ذلك بثلاثين عامًا في الشرق الأوسط.

وانعقد مؤتمر صفاقس في جوٍّ متوتر، ودعيت إليه جميع إطارات الحزب، وتخلف صالح بن يوسف، فقد كان هاربًا في الخارج ناجيًا بحياته. وبالطبع صفق الحزب طويلًا لبورقيبة، ودعا له بطول

العمر! وأشهد الآن أنني خلال المؤتمر كنت في صف صالح بن يوسف. ولكن التجربة أثبتت أن بورقيبة كان على حق. فمن خلال تونس المستقلة استطاع الحكم أن يحمي ثورة الجزائر، وصارت تونس قاعدة للثورة ومقرًّا للثوار. المهم أن مؤتمر صفاقس كان هو الفصل الأخير من مرحلة الحوار بين الثوار. وبدأت مرحلة جديدة بعد المؤتمر، هي مرحلة الحوار بالرصاص. وانتهت هذه المرحلة أيضًا بإطلاق رصاصة على رأس صالح بن يوسف، وهو في غرفته في أحد الفنادق بألمانيا الغربية! ومات سياسي عربي مخلص، اجتهد فأخطأ، وبدلًا من أن يثاب على خطئه بأجر، أصيب برصاصة في الظلام قضت عليه!

صفت المياه للحزب الحر الدستوري التونسي وصار هو الحزب الحاكم في بلد الخضرة والسلام. ورفع الحزب شعار «وحدة عرب الكسكي والجلاب».

وكانت غلطة لا تغتفر، لأن الحزب قسم العرب إلى أَكَلة الكسكي وأَكَلة الفول، وأَكَلة الكبة والسمك المسجوف، وأَكَلة الويكا والشرموت!

وتركت الحزب الحر الدستوري يحلم بحكم المغرب العربي من طنجة إلى طبرق، ونزلت إلى الشارع أشرب الشاي مع شعب تونس حول أسوار جامع الزيتونة، وأدخن النارجيلة في حواري القصبة، وأتمشى أفرنجي على شواطئ بورسعيد، وأشرب البوخا في المقاهي المنتشرة على طول جادة الاستقلال! وبهرني الشعب التونسي بحيويته وذكائه واحترامه الشديد للفن وحبه الشديد

للحياة! تعرفت على بنت تونسية تحاول أن تخطو أولى خطواتها في عالم الطرب. سألتني كيف تقابل أم كلثوم وليلى مراد ومحمد عبد الوهاب؟ جلست في ندوة أدبية، وكان الحديث كله يدور حول أحمد أمين وزكي مبارك وطه حسين والعقاد. تناولت العشاء مرة على طاولة في ناد للكرة، وكان الحديث كله عن الكابتن الضيظوي والكابتن الديبة والكابتن صالح سليم، دعاني أحد مشايخ جامع الزيتونة إلى منزله وراح يناديني طوال السهرة بـ«الحاج»، فلما قلت له بأنني لم أتشرف بعد بحمل هذا اللقب، ولم أسعد بعد بزيارة الأرض المقدسة، أجابني الرجل الطيب: «الأرض المقدسة تبدأ عندنا من حدود مصر».

وعشت في صفاقس أيامًا في ضيافة الشيخ أمين حسنين، وهو مطرب ومقرئ مصري شهير ذاع صيته في عشرينيات هذا القرن، وهاجر إلى تونس قبل الحرب العالمية الأخيرة. وخلال احتلال ألمانيا لتونس، كان ثعلب الصحراء روميل يتردد عليه في منزله ليستمع إلى فنه العظيم، وأهداه علبة ذهبية مرصعة بالأحجار الكريمة ليحتفظ فيها بالنشوق. ورأيت هدية روميل مع الشيخ أمين وكان يعتز بها اعتزازًا خاصًا، كما كان فخورًا بصداقة صاحبها، وقال لي وهو يتنهد أسفًا: كان روميل يحب الإسلام وكان في سلوكه يتشبه بالمسلمين الصالحين! كان الشيخ أمين غارقًا لأذنيه في حب تونس، وما الفرق بين تونس ومصر؟ أو بين تونس والعراق؟ أو بين تونس والحجاز؟ لا شيء في واقع الأمر. وأدركت سر بيرم التونسي الذي اقترن أبوه التونسي بامرأة مصرية إسكندرانية، فأنجب أعظم زجّال مصري نطق باللغة العامية المصرية على طول الزمان! هؤلاء

التوانسة الأحباء هم أحفاد بني هلال، حلوا ضيوفًا عليها بعد تغريبة شهيرة خرجوا فيها من الجزيرة العربية، قاطعين الطريق إلى تونس عبر بغداد و«سر من رأى» والموصل ودمشق وسهل طبرية والقدس والخليل وغزة والقاهرة والإسكندرية وبني غازي وطرابلس. وعبر الطريق أقاموا وتزوجوا وتناسلوا، وأخذوا نسلهم معهم، خليطًا من أبناء قحطان المنتشرين على الأرض العربية. ولذلك ستجد التواشيح التونسية، خلاصة فن العرب جميعًا. وستجد في التونسي خصال العربي القديم، رقته وشجاعته ودهاءه وسعيه الذي لا يكل! ويا ميت صلاة النبي على التونسي إذا صادق، وعلى التونسية إذا أحبت! سيعطيك الصديق حياته، وستعطيك الحبيبة كل ما أودع الله من أسرار في بنت حواء، ومن أخمص القدم إلى مفرق الشعر!

ويا ميت حلاوة على تونس العاصمة كأنها برج بابل. فيها شوارع كفرنسا وحوارٍ ولا حواري بولاق الدكرور. وفيها ناطحات سحاب كنيويورك وأكواخ كأخواخ الزنوج. وفيها نسوان ماشية في الشارع «زلط وملط»، ونسوان تخرج الشارع مختبئة في خيمة، وكأنهن يعشن في أيام عمرو بن كلثوم! وفي تونس مزارع ولا مزارع الدلتا، وصحراء ولا صحراء العلمين. وفيها مطاعم ولا مطاعم مكسيم، وجوعى ولا جوعى المنطقة التي على حدود بنجلاديش والهند! ولكن أعظم ما في تونس هو احتفاظها بالطابع العربي الأندلسي في العمارة وفي الموسيقى وفي المطبخ. وكل تونسي فنان ولو كان يعمل في كنس الشوارع. وكل تونسية مطربة ولو كانت تغسل الملابس في البيوت.

والبنت التونسية عينها جامدة وشخصيتها أجمد، وهي عنيفة

كالصخرة ورقيقة كغصن البان، ولكن الرجل التونسي «مزاجاتلي» وكل ساعة بحال. هو في الكرم كحاتم، وفي السهر كنديم في بلاط هارون الرشيد، وفي الخصومة أشرس من نمر الغاب! وهو الوحيد ربما في المغرب العربي الذي يحب النكتة المصرية ويفهمها ويضحك على أي نكتة عمال على بطال. والتاجر التونسي هو أشطر تاجر في المغرب العربي. وهم يجيدون أشغال الفندقة والسياحة وجذب الغرباء. وهم في المغرب العربي كلبنان في المشرق العربي، ولكن هناك فرقًا، فالتونسي فيه كل مزايا اللبناني وليس فيه أي شيء من سلبياته. والسبب أن التونسي لا يعرف الجبال، ولكنه يعيش في سهول خضراء وفي صحراوات ممدودة.

وميزة تونس أيضًا أن الحزب الحاكم استطاع أن يفرض الأمن في كل مكان. كما أنها تخلو تمامًا من أي مراسم في دوائر الحكومة. وتستطيع في أي وقت أن تقابل كاتب الدولة (الوزير) حتى بدون أسباب، يكفي أن تدخل مكتبه وتشرب الشاي وتنصرف في سلام! وبورقيبة هو الزعيم الوحيد الذي يتحدث مع شعبه مرة كل أسبوع من خلال التليفزيون، حديثًا ليس في السياسة، ولكنه حديث شخصي كأنه جالس مع أقرب أصدقائه في البيت. وهو يحكي لهم عن خلافاته الزوجية، وأسباب القطيعة بينه وبين ولده الحبيب، وعن أكلة البيض التي سببت له الإسهال! وأحيانًا يصف لهم دواء جربه هو شخصيًّا وينصحهم باستعماله، باعتبار: اسأل مجرب ولا تسأل طبيب.

والنساء في تونس لهن حظوة ولهن حضور في المجتمع، ولهن في السلطة كلمة ومكان. وكانت السيدة الأولى وسيلة قبل طلاقها هي مصدر جميع السلطات!

والحق أقول إنني عشقت تونس من أول نظرة، ولكن أحوال السياسة التعبانة حرمتني من زيارتها منذ ذلك التاريخ، فلم أشاهدها مرة أخرى منذ عام ١٩٥٦. ولكن تونس الخضراء بالرغم من كل هذه السنين لم تذهب صورتها من مخيلتي. فقد قضيت فيها وقتًا طويلًا وطيبًا، وقطعتها من شاطئ البحر وإلى عمق الصحراء. وأدركت وأنا أتسكع في ربوعها، ومن خلال أشجار النخيل والتين والزيتون وبساتين الكروم، كيف نشأ وترعرع أبو القاسم الشابي، أبرز شعراء عصر الرومانسيين العظام. ذلك العصر الذهبي الذي أنجب دستة من فحول الشعراء، أمثال: علي محمود طه، وأبو القاسم الشابي، وناجي، وأحمد فتحي، وعبد الرحمن الخميسي، وكامل الشناوي، ومحمود حسن إسماعيل. وبالرغم من جديد صلاح عبد الصبور ونزار قباني، إلا أنهما يعتبران امتدادًا له وبعضًا من بقاياه!

وتركت تونس ذات صباح خريفي جميل، وتركت قلبي هناك مع بنت من بنزرت على خدها شامة وعلى «خشمها» وشم. البنت التونسية كانت تقرض الشعر أحيانًا، وتضرب على العود أحيانًا، وتغني دائمًا حتى وهي تصرخ، وهي تبكي، حتى وهي صامتة وصائمة عن الكلام! وكان العبد لله شابًّا في شرخ الشباب، وللشباب فنون وجنون أيضًا.. ما أحلى أيام الشباب! وودعت تونس إلى لقاء، ولكننا لم نلتق قط، قاتل الله السياسة، فرقت بيني وبين تونس، وفرقت بين تونس وجيرانها، ولم يبق من وحدة الكسكي والجلباب، إلا أطباق الكسكي وقماش الجلباب.

الأرض الخراب

ودّعتُ تونس كلها، ويممت وجهي شطر الحدود الليبية، وكانت انتقالة قصيرة في المسافة، لكنها كانت نقلة رهيبة في الزمن. فبينما عبرت الحدود في ساعة، وجدت نفسي أعود القهقرى ثلاثة قرون على الأقل. ولقد دخلت ليبيا بمعجزة، فقد رفضت جميع سفارات الملك إدريس منحي تأشيرة دخـول.. دُخت دوخة الدجاجة المنصابة، وأنا واقف على باب السفارة السنوسية في القاهرة. ورابطت أيامًا أمام سفارات ليبيا في عواصم أخرى كثيرة، ولكن لا من شاف ولا من دري، كأن أي مواطن مصري بالنسبة إلى مملكة السنوسي ـ رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه يا أولي الألباب! وكان الشلحي الموجود في القاهرة اليوم يرسم خرائط السد العالي الذي قررت حكومة ليبيا إقامته على الحدود، ليمنع اتصال القطرين! وكانت ليبيا ـ وقتئذ ـ «حلال للطير من كل جنس، حرام على بلابله الدوح» وبالرغم من ذلك توكلت على الله وتوجهت نحو الحدود الليبية، وقلت: فليكن ما يكون! وما الذي سوف يكون سوى منعي من الدخول، أو ضربي علقة عند الحدود، أو حبسي بضعة أيام في

سجون ليبيا، وأيًّا كان الأمر، فستكون هناك قصة تصلح للكتابة وحدوتة تحفظ في متحف الذكريات. ثم إنني في النهاية سأتمكن من إلقاء نظرة على قطعة من أرض العروبة، فمن يدري؟ قد يشاء حظنا التعس أن نعيش ونموت دون أن ندخلها قط!

ووقفت أمام عسكري الجوازات الليبي، وراح يدقق في جواز سفري ثم قال مندهشًا: ولكنك لا تحمل تأشيرة دخول! وقلت للعسكري برقة متعمدة، وبأدب مبالغ فيه: إنني في الحقيقة لا أقصد زيارة ليبيا، ولكني مجرد عابر سبيل في طريقي إلى مصر، فإذا أردت منحي تأشيرة لمجرد المرور فأنا شاكر فضلك، وإذا كان هذا مستحيلًا، فسأعود أدراجي من حيث جئت، وكفى الله المؤمنين القتال! وقال العسكري الليبي ووجهه يضيء بالحب: إذا كانت مصر بلادك فهذه أيضًا بلادك، مرحبًا بك في أرض ليبيا وإلى أي مدى تشاء. وختم الرجل الطيب جواز سفري. زيارة لمدة شهر. يا سبحان الله! كل الاحتياطات التي اتخذتها حكومة جلالة الملك وقناصل جلالة الملك ومخابرات جلالة الملك، أطاح بها هذا العسكري العربي الطيب في لحظات! أي انفصال كامل وكلي بين ما يدبر فوق في العلالي، في قصور الحكام ومكاتب المتسلطين، وما يجري في الشارع مع جماهير الناس الطيبين، التي تدرك بالغريزة أنه ما دامت مصر بلادي فليبيا أيضًا بلادي، ومرحبًا بك في بلادي.. وإلى أي مدى تريده.

وكما موسى كليم الله، جئت ليبيا على قدر، ودخلت المدينة أسعى على حذر، ولكن أين هي المدينة؟ الشاطئ مهجور إلا من أشجار النخيل، والشوارع خالية إلا من بعض عساكر الأمريكان،

وحوانيت مفتوحة ولكن بلا حركة في الداخل، وعدد من النساء يقطعن الشارع وقد ارتدين خيامًا متنقلة حتى لا تقع عليهن عين بشر، وبعض الرجال في ملابس رومانية من عهد قيصر. ثم لا شيء بعد ذلك. لا شيء على الإطلاق إلا السكون والصمت! وقبعت في صالة فندق المهاري على شاطئ البحر أتطلع إلى الوجوه التي حولي، وكلها وجوه خواجات عبرت البحر من أوربا، بعضهم خبراء وأغلبهم جواسيس وعملاء ووسطاء، والكل مثلي قابع في مكانه في هدوء يلفه السكون والصمت! ولكن ولدًا ليبيًّا يعمل صحفيًّا لا أذكر أين، اسمه الفيتوري، ولا أذكر اسمه الأول، جاءني رغم كل شيء، وخرجت معه ذات مساء إلى قاعدة هويلس، واستطعت أن ألتقط صورًا لمواقع الصواريخ المصوبة نحو مصر، قلبي مع العسكري المسكين الذي سمح لي بالدخول، لا بد أنهم أذابوه كقطعة الصابون أو نشروه كلوح خشب بلوط ـ مع الاعتذار لأخينا علي بلوط.

وقضيت في ليبيا أسبوعًا أحاول أن أنفذ إلى داخلها دون جدوى. صحيح أنني دخلت الأرض الليبية، ولكني لم أدخل ليبيا. وكيف أستطيع وليبيا نفسها غير موجودة وليس لها حضور؟! الحضور كله لبطانة الملك السنوسي، وتستطيع أن تراها في صالة قمار فندق البحر المتوسط. والحضور كله لضباط القاعدة الأمريكية. وتستطيع أن تراهم في كل وقت. والحضور كله لرجال الأمن وهم وراءك على الدوام. وفيما عدا ذلك لا حضور لأحد على الإطلاق. الشعب الليبي خلف أسوار السكون والصمت يأكل المبكبكة والبارزين، وضباط الجيش الليبي الوطنيون نصفهم في لندن بدعوى العلاج أو

الدراسة، والنصف الآخر في ليبيا تحت الرقابة. ومن الذي يراقب؟ مخابرات أمريكا وبريطانيا وفرنسا! فلكل منها ثلث مساحة ليبيا على وجه التقريب!

ولم أستطع أن أتحدث مع واحد ليبي، أو أدخل بيتًا ليبيًّا على الإطلاق! حتى المصريين الذين كانوا في ليبيا وقتئذ، كانوا جميعًا ـ وبلا استثناء ـ هاربين من حكم عبد الناصر، وكانت الغالبية العظمى من الإخوان المسلمين، وقلة منهم من رجال العهد الملكي الذي قضت عليه ثورة يوليو، وقد استطاعوا الإفلات من مصر بثرواتهم وعاشوا في طرابلس عيشة أقيال الهنود! حتى المتاجر والمخازن لا ترفع لافتات عربية، وإنما كل اللافتات مكتوبة باللغات الأوربية، وخيل إليَّ أنني أسير في شارع من شوارع روما أو لندن أو باريس. وثروات الشعب العربي في ليبيا تنهب بلا حساب، ودود أوربا الخبير يمص دم الشعب بلا رحمة، وتحول الشعب في النهاية إلى جثة هامدة بلا حراك، كل «سلوته» في الحياة احتساء أكواب الشاي في النهار، وتسكين الدماغ في الليل بأنفاس الحشيش المعطرة أو أكواب البيرة المثلجة، والاستغراق في أحلام سعيدة عن النفط الذي بدأت روائحه تملأ الخياشيم في أنحاء البلاد.

وكما حدث في أمريكا عند ظهور الذهب، تدفق الآلاف من الليبيين إلى المدينة، وقد هجروا القرى والحقول وتركوا قطعان الماشية تسرح بلا رعاة في البراري، وجاء الجميع تسبقهم صرخة مدوية: النفط، ومطلبهم الوحيد: الوظيفة. وبدلًا من أن تزجرهم الحكومة، فعلت العكس، وشجعت المهاجرين على الإقامة في المدينة، وألحقتهم جميعًا بمهن غير منتجة، فراشين في دواوين

الحكومة. وفي بعض المدارس في طرابلس بلغ عدد المدرسين خمسة عشر مدرسًا، وعدد التلاميذ مائة طالب، وعدد الفراشين مائة وخمسين فراشًا، وحتى هذا العدد الهائل لم يكن يؤدي عملًا ما في المدرسة، ولكنهم كانوا يكتفون بالجلوس في حلقات في فناء المدرسة يشربون الشاي أحيانًا وينامون أغلب الأحيان، وفكر عدد منهم في زيادة دخله فسجل نفسه فراشًا في أكثر من مدرسة وفي عدد آخر من الدواوين.

وبدأت ليبيا بعد ذلك التاريخ تستورد أكلها من الخارج. حتى الفجل! ولكن.. لا شيء يهم ما دام الملك إدريس مهتمًّا بمزرعة الخيول الملكية، والأمير الرضا يتأمل النجوم من شرفة قصره المطلة على البحر المتوسط، ووزير الداخلية صوفي الذي كان يعمل محصلًا في ترام الرمل في الإسكندرية ـ يسيطر على الأمن في الشارع، ويعد أنفاس الناس في البيوت، ويحرس منشآت البترول من أن يقترب منها شبح كلب شارد! ولقد كانت المؤامرة كبيرة ورهيبة، ولم يكن في ليبيا كلها من يستطيع منعها. وكانت الخطة جهنمية وهي: إفراغ الأرض الليبية من فلاحيها وإلحاقهم بوظائف فراشين في الحكومة حتى لا يكون هناك أدنى ارتباط بين الليبي وأرضه، وحتى يسهل بعد ذلك اقتلاعه من الأرض الليبية كلها، وكان الملك السنوسي مشغولًا بخيوله، والأمير الرضا يكتفي بالتأمل ولسان حاله: رضا لمن يرضى! والحكومة متواطئة مع الأجنبي، وأعضاء الحكومة ليس لهم في ليبيا شيء يخافون عليه، وكل ما يملكونه في ليبيا أودعوه خزائن خارج الحدود.. المهم أن تستمر الأحوال على

هذا النمط أطول وقت ممكن، والمهم أن يستنزفوا من دم الشعب أكبر كمية ممكنة!

ولذلك لم يلحظ أحد شيئًا مريبًا، وطائرات فرنسا وإنجلترا تحتشد في قاعدة العظم على حدود مصر! ولم يستنكر أحد من السادة في ليبيا ما حدث بعد ذلك عندما قامت هذه الطائرات بضرب القاهرة أيام العدوان الثلاثي! بل احتفل بعض الوزراء وبعض الحكام في ليبيا بانتصار الحلفاء على «العدو المصري» غير أن شعب ليبيا العربي كان له موقف مختلف: هبت الجماهير في حماسة أصيلة تحرق كل شيء يملكه الأجانب في بني غازي وطرابلس، وحاصر الناس أحياء اليهود في المدينتين، وهاجموا القواعد العسكرية والسفارات الأجنبية وأشعلوا النار في العلم البريطاني والعلم الفرنسي، وقتلوا عددًا من جنود الاحتلال كانوا يتنزهون على الشاطئ في اللحظة ذاتها التي سكتت فيها إذاعة القاهرة! وهبت الحكومة هي الأخرى فاتخذت إجراءات مضادة: ألقت القبض على الكثيرين، وعوضت الأجانب عن ممتلكاتهم التي احترقت، واعتذرت عن أرواح ضحايا جنود الاحتلال التي أزهقت. وزيـادة في احتياطات الأمن، منعت الحكومة إذاعة نشيد «الله أكبر» وهو النشيد ذاته الذي سيكون نشيد ليبيا الوطني في مستقبل الأيام. وزيادة في الأمن والأمان، استوردت حكومة السنوسي عُمالًا من إيطاليا ومن مالطة ومن البرتغال ومن تشاد، ولكنها منعت مرور عمال مصر عبر الحدود، وقامت بترحيل من كان موجودًا منهم في ليبيا.

وخلال السنوات الست التي تلت العدوان الثلاثي، تحولت

الأراضي المزروعة إلى أراض بور، وأصبح الجبل الأخضر جبلًا من التراب والصخور، ونفقت قطعان الماشية، التي كانت ترعى وحدها في الخلاء، وحدثت معجزة لا أظنها حدثت قبل ذلك في أي مكان: ليبيا التي كانت تصدر الضأن إلى الخارج، أصبحت ولأول مرة تستورد اللحوم من تركيا ومن إيطاليا والصومال. وتحولت ليبيا بفضل الحكم الأحمق إلى ثلاث دول: دولة فزان وتحكمها فرنسا، ودولة بني غازي وتحكمها إنجلترا، ودولة طرابلس وهي تحت الحكم الأمريكي. وخيل للمراقبين في كل أنحاء العالم أن ليبيا قد ماتت، وأن الشعب الليبي في غفوة مثل غفوة أبناء الرقيم. وأطلق الجنرال لاكوست الذي كان يحكم الجزائر نكتة شهيرة عن ليبيا عندما سأله صحافي فرنسي عن مدى خطر الثورة العربية الآتية من الشرق على الوضع في الجزائر.. ضحك لاكوست السمين وقال: «بيننا وبين الشرق العربي أرض ميتة، وهي مُوصل غير جيد للحرارة، وهي كفيلة بقتل كل شيء يعبرها أو يقيم عليها؛ الأشخاص والمبادئ والأفكار، ونحن نعيش هنا خلف ساتر يحمينا ويوفر لنا الأمان!».

وكانت ليبيا هي الأرض الميتة التي عناها الجنرال لاكوست، وهي عبارة فيها الكثير من الواقع والكثير من سوء الفهم. فقد كان لاكوست ينظر هكذا إلى الحكومة وإلى السلطة، لكن نظره الضعيف لم يستطع أن ينفذ إلى الأعماق وتحولت ليبيا إلى أضحوكة في نظر الجميع، لدرجة أن أحد الصحفيين العرب عندما قرأ «انقلاب عسكري في ليبيا»، ظن أن عسكريًّا ليبيًّا قد انقلب على الأرض أثناء سيره في الطريق.

ولكن رغم الماء الآسن والظلام المخيم والموت الذي يرفرف على رءوس الجميع، ذهبت إلى سوق طرابلس واشتريت بعض الأغراض من تاجر ليبي ظل نائما على جنبه وأنا أفتش في المحل عما أريد. وعندما حاولت أن أنقده الثمن، اكتشف الرجل أنني مصري وأنني زائر في طريقي إلى وطن أبو خالد، وأقسم الرجل ألف مرة أنه لن يتقاضى أي ثمن. وأكثر من هذا، أقسم ألف مرة أن أشرب معه الشاي قبل أن أغادر المحل. وقبلت شاكرًا اعتقادًا مني أن الشاي في طرابلس مثل الشاي في أي مكان على ظهر الأرض. وكانت الساعة الخامسة بعد الظهر عندما بدأنا حفلة الشاي. وعندما خرجت من المحل كانت الساعة قد بلغت العاشرة، وكان الإخوة الليبيون لم ينتهوا من شرب الشاي بعد. فأنت تبدأ بالشاي الأسود، ثم الشاي الأحمر، ثم الشاي الباهت، ثم تعود إلى الشاي الكحلي، ثم الشاي الأزرق، ثم الشاي الوردي، ثم الشاي الأحمر، وهكذا تتذوق كل الألوان، ومع كل لون حكايات تروى وأحاديث تقال، ولكن لا أحد يسمع لأن الجميع مشغول بشرب الشاي.

ولقد تركت ليبيا ذات يوم من ١٩٥٧ وأنا واثق أنني لن أعود. لقد كان كل شيء يوحي بأن ليبيا قد ضاعت إلى الأبد. وإذا كانت الجزائر قد ضاعت بفعل فرنسا، وفلسطين ضاعت بعدوان إسرائيل، فليبيا ضاعت بسبب خيانة بعض حكامها، ولكن لأن الليالي دائمًا حبلى، ولأنها أيضًا تلد كل عجيب، حدث عكس ما توقعه الجميع. وذات صباح من عام ١٩٦٩ وقعت الواقعة في ليبيا.

ولم يكن بيان السلطة الجديدة بيانًا للثورة بقدر ما كان تأشيرة دخول للعبد لله للعودة إلى ليبيا. وكان مجيء الثورة هو هدية

الأقدار للأمة التي انتكست في حرب ١٩٦٧، وكان علامة على أن هذه الأمة قد تنام أحيانًا ولكنها لا تموت، وأنها قد تمرض أحيانًا ولكنها قادرة دائمًا على المقاومة، وأنها أقوى من الشلل ومن العجز.

وإذا كانت رحلتي الأولى إلى ليبيا تمت في ظل الملكية، فإن رحلاتي إلى ليبيا بعد ذلك تمت في ظل الثورة، والغريب أننا نحن العرب نصنع نفس الأشياء في ظل جميع الأنظمة المختلفة، ولذلك يخيل للعبد لله أحيانًا أننا نحن العرب لا نعرف إلا نظامًا واحدًا للحكم، ولكننا نطلق عليه عدة أسماء، نظامنا العربي من واقع التجربة المرة هو نظام «كبير العائلة» الجالس على الدكة، في يده اليمنى سيف وفي يده اليسرى كيس منتفخ بما فيه من ذهب وفضة. ونحن نطلق على هذا الكبير الجالس على الدكة أحيانًا لقب ملك، وأحيانًا لقب شيخ، وأحيانًا لقب رئيس. ولكن الألقاب في بلادنا ليس لها مدلول وليست ذات مغزى، فجوهر الحكم واحد في ظل جميع الأنظمة وتحت جميع المسميات في عالمنا العربي. وهي قبائل سياسية، الأمر والنهي في يد شيخ القبيلة، وليس لأفراد القبيلة إلا السمع والطاعة وكتابة التقارير اليومية. والخلاف بين أحزابنا ليس خلافًا فكريًّا ولكنه ثأر، ولا يضيع ثأر وراءه مطالب. ولذلك أيضًا طبقنا الشيوعية بأسلوب عربي ففشلت، وطبقنا الاشتراكية بأسلوب عربي ففشلت، وحاولنا تعريب الرأسمالية ففشلت. والسبب هو نظامنا العربي الذي نطبقه في كل مكان من بلاد العرب، والذي يَجُب ما قبله ويلغي ما بعده!

ولقد ذهبت إلى ليبيا الثورة أكثر من مرة. وفي أول مرة تعرفت

على الثوار وصدمت! مجموعة شباب ثوار أكثر سذاجة من عَمّ الشيخ عطوة مجذوب بلدنا، وأكثر طيبة من خالتي، لديهم أحلام وليس لديهم برامج، وعندهم نية وليس عندهم قوة. وفي المرة الثانية تضاعفت الصدمة عندما اكتشفت أن الثورة عندهم تعني الفوضى. وفي المرة الثالثة قررت أن أغادر ليبيا وألا أعود إليها. ولكن بين الزيارة الأولى والزيارة الأخيرة وقعت مصائب وحدثت أهوال وجرت أحداث، ولذلك سنرجئ الحديث عنها، لنروي لكم الوقائع بالتفصيل، ومع التحليل.

والكفاح دوّار!

ولقد قُدر للعبد لله أن يعود إلى ليبيا بعد الثورة، وكانت المرة الأولى خلال زيارة عبد الناصر لها. وكانت الثورة لا تزال بكرًا، وأفق الثوار لا يزال محدودًا. كانوا ثوارًا لا يزالون، لم يتحولوا بعد إلى رجال حكم.

وأذكر أنني كتبت بالتفصيل عن زيارتي الأولى للقذافي، وهو نزيل مستشفى طرابلس العمومي لإجراء عملية الزائدة الدودية. ولم أكن وحدي حين ذهبت إليه، ولكني ذهبت مع الزميل الكبير الأستاذ أحمد بهاء الدين.

واكتفينا في البداية بتسجيل أسمائنا في سجل التشريفات، وعندما استدرنا عائدين، وقبل أن نصل إلى باب الخروج، اكتشفنا أن هناك من يجري خلفنا، ينادي علينا بأعلى صوت، يرجونا أن نعود للقاء العقيد القذافي. لم يكن الذي يجري خلفنا أي أحد، ولكنه كان بشير هوادي عضو مجلس قيادة الثورة ومعه عضو مجلس ثورة آخر هو محمد المقريف. وعدنا، الأستاذ أحمد بهاء الدين وأنا، ودخلنا حجرة القذافي، ولم أصدق أنها حجرة الرجل الذي قلب الأوضاع في

ليبيا، وطرد الملك السنوسي منها، وجلس مكانه فوق القمة العالية. لم يكن في الحجرة شيء إلا سرير عادي من أَسِرَّة المستشفيات، وبجانب السرير منضدة صغيرة مدهونة بطلاء أبيض، وعلى المنضدة إناء زجاجي به ماء، وكوب صغير به عدة ورود، وجهاز راديو صغير، ثم لا شيء بعد ذلك. وكان القذافي نفسه يتمدد على السرير، مرتديًا بيجامة عادية مقلمة، وقدماه عاريتان، وعندما أبصرنا قهقه عاليًا، ورفع يديه كأنما يهم باحتضان الهواء.

وجلسنا معه وفي نيتنا أن نقضي خمس دقائق، ولكنه كان يصر على الجلوس كلما استأذنا بالانصراف. وامتدت جلستنا معه إلى ساعة ونصف الساعة، خلالها ناقش أحمد بهاء الدين في مقال كان قد نشره على صفحات «المصور»، ثم التفت نحوي وقال: لا تغادر ليبيا قبل أن أغادر المستشفى، فلي معك حديث طويل، فلما استفسرت من العقيد عن موعد خروجه، أجاب: بعد أسبوعين. فلما اعتذرت له عن عدم إمكاني البقاء في ليبيا كل هذا الوقت، قال ضاحكًا: إذن سأصدر أمرًا باعتقالك في ليبيا. ثم قال العقيد وهو يضحك: لقد قرأت لك كتابك الأخير «الشيخ لعبوط يتلعبط» وكنت أحيانًا أضحك وأنا جالس وحدي، واضطررت إلى ترك الكتاب، حتى لا يراني أحد وأنا في هذه الحالة فيتهمني بالجنون. ثم قال: سأعطيك مفكرة الملك السنوسي، وستجد فيها ما هو أعجب وأغرب من يوميات الشيخ لعبوط. ثم قال لبشير هوادي: اذهب مع محمود إلى دار الحكومة وأعطه مفكرة الملك السنوسي. وعندما أبدى بشير هوادي بعض الفتور، قال له العقيد بلهجة آمرة: اذهب معه الآن وأعطه المفكرة.

كان هذا أول لقاء لي مع العقيد، وغادرت ليبيا مع الأستاذ بهاء قبل أن يغادر المستشفى. كان ذلك في عام ١٩٦٩، ولم تقدر لي العودة إلى ليبيا مرة أخرى إلا في عام ١٩٧٥، وفي شهر أبريل بالذات، أي بعد ست سنوات من ذلك اللقاء الخاطف في حجرته بمستشفى طرابلس العام. ولقد كانت في ذهني صورة رسمتها لليبيا الثورة، تصورت أن كل ليبي تحول إلى ثائر، وأن الصحراء تحولت إلى جنات خضراء، وأن طرابلس أصبحت قطعة من أوربا، وأن ليبيا بالثورة دخلت القرن العشرين من أوسع الأبواب، ولذلك كانت صدمتي شديدة عندما اكتشفت أن كل شيء بقي على ما هو عليه، الشيء الجديد الذي طرأ على الحياة هناك هو مجموعة شعارات، وعدة ميكروفونات، وصراع السلطة بين الثوار على أشده. بشير هوادي مبعد عن السلطة، ومحمد المقريف مات في حادث مريب. صحيح أن هناك أشياء كثيرة تغيرت، منها أن الثوار تحولوا إلى حكام، في الزيارة الأولى مثلًا، كان على الصحفي الذي يزور ليبيا أن يسدد فاتورة فندقه، لأن الثوار لا يرشون أحدًا، ولا يطمعون في استمالة أحد. ولذلك سدد حسابي في الفندق صديقي أحمد الفتحلي، وسدد فاتورة الأستاذ أحمد بهاء الدين صديقه الأستاذ الغتوري. ولم يكن الحساب إلا عدة دنانير قليلة، فقد عشنا في تقشف شديد يليق بنبض الثورة ونهجها. ولكنهم في الزيارة الثانية استضافوني في فندق الشاطئ. وهو فندق يقع على مساحة كيلو متر مربع، ولذلك فهو أشبه بالمطار منه إلى الفندق، واكتشفت أنه مضيفة لجميع المناضلين من كل أنحاء الأرض.

ولما كان المناضلون أشكالًا على ألوان، فقد اكتشفت أن بالفندق

عددًا من المناضلين نزلوا بالفندق عند افتتاحه منذ عامين، ولم يغادروه! وكان هؤلاء ينامون نهارهم بالفندق، ويسهرون الليل فيه، ولما كانت الخمور ممنوعة، فقد اكتفوا بعصير الليمون، وهو عصير مستورد من إيطاليا، كان له طعم الليمون، وليس له خصائصه، شيء أشبه بالنضال الذي يقوم به هؤلاء السادة المناضلون، وكان البعض منهم حسن النية، والبعض الآخر قليل الحيلة، والبعض الآخر أرزقي معتاد على الاسترزاق، وجد ضالته في فندق الشاطئ، وأقام على أمل أن تحقق له الأيام جزءًا مما يريد. الشيء الوحيد الذي كان يربط بين الجميع هو الأحلام: بعضهم يحلم بأمة عربية واحدة من الخليج إلى المحيط، وبعضهم كان أكثر تفاؤلًا، وهؤلاء كانوا يحلمون بوحدة من المحيط إلى المحيط، من المحيط الأطلنطي إلى المحيط الهندي، والبعض الآخر كانت أحلامه تمتد إلى أبعد من هذا، فيحلم باسترداد الأندلس والإسكندرونة، وبخارى، وسمرقند، ولم لا؟ والثورة في ليبيا قائمة والكفاح دوار! وسهرت ليلة واحدة مع المناضلين في فندق الشاطئ، ولم أعد إليهم بعد ذلك قط.

واجتمعت بالعقيد ذات ليلة عاصفة ومطيرة في مكتبه بالقيادة العامة، العقيد وأنا ليس معنا ثالث، وعندما سألني عن أحوالي في فندق الشاطئ قلت له ضاحكًا: الفندق عظيم، ولكن المناضلين فيه أكثر من اللازم، وضحك العقيد وهو يقول: والله يا محمود عندنا مناضلون أكثر من حاجة الأمة العربية. وبالرغم من أن الجلسة استمرت ساعات طويلة، وتشعب الحديث فيها، وذهب إلى اتجاهات شتى، إلا أن العقيد طلب خلال اللقاء عدة طلبات محددة:

* أن أصدر جريدة في بيروت، فاعتذرت له بأن ذلك مستحيل لأنني سأقتل في اليوم التالي لصدورها. وقال العقيد: ولكني سأحميك في بيروت. وقلت للعقيد: أنا واثق أنك تستطيع حمايتي في بيروت، ولكن المأساة أن الخطر لن يكون من جانب الرأسمالية العالمية، أو الإمبريالية الاستعمارية أو الشواشي العليا للبرجوازية.. إلى آخر هذا الكلام الذي لا يضر ولا يفيد. الخطر الحقيقي يا سيادة العقيد سيكون مصدره أصحاب الصحف اللبنانية. فالجرائد التي من هذا النوع لها أصحابها، وسوق الصحف الخاضعة لنفوذ الأنظمة العربية لها زعماء وآباء روحانيون، وهم مستعدون لصنع كل شيء وأي شيء لمنع الغرباء والمتطفلين.

* أن أعيش في طرابلس، وأكتب في جريدة ليبيا اليومية، وهي جريدة الفجر الجديد. ومصيبة العبد لله أن النكتة تَحْبك معي أحيانًا، وقد حبكت معي في تلك اللحظة فقلت له: أكتب فين.. في الفقر الجديد؟ ويبدو أن النكتة لم تعجب العقيد فغاب عني فترة، وغاب بعيدًا عن الحجرة التي كنا نجلس فيها، وتبدلت ملامح وجهه وبدا عليه أنه يكظم غيظًا شديدًا في داخله.

* أن أصدر كتابًا عن السادات، وعن حقيقة ما دار قبل وحول وأثناء يوم ١٥ مايو الشهير. وأفهمت العقيد أن الوقت لم يحن بعد لكشف أسرار هذا اليوم العجيب، وأنني سأكتب هذا الكتاب عندما تأتي الفرصة ويحين الوقت المناسب.

وعندما انتهت المقابلة في الفجر ودعني العقيد عند الباب الخارجي، وقال: هذه بلادك تستطيع أن تقيم فيها كما تشاء،

وتستطيع أن تغادرها كما تشاء، وسأراك مرة ثانية عما قريب. ولكن مقابلتي له لم تَرُقه بالتأكيد. كنت صريحًا أكثر من اللازم وجلياطًا في بعض الأحيان، وشعرت بفتور من جانب المسئولين الصغار الذين كانوا يبدون للعبد لله عواطف مبالغ فيها في أول أيام الزيارة. وزاد الفتور عندما دعوني إلى ندوة في الإذاعة، وحضرت الندوة بالفعل، ولكني اعتذرت عن الكلام. ولأنه رب ضارة نافعة، فقد كان فتور هؤلاء المسئولين الصغار سببًا في الإقلال من الزيارات التي كانوا يقومون بها للعبد لله، ووفر هذا الفتور وقتًا للعبد لله لكي يسرح في الشارع الليبي.

كان دليلي إلى الشارع الليبي محاميًا في الأربعين من العمر، وهو خريج كلية الحقوق المصرية، وكان يتصور أن المحاماة هي أرقى مهنة في الوجود، وأن المحامي هو رسول الله على الأرض، وكان يعيش على أمل واحد، هو أن يعيش حتى يرى اليوم الذي يتحرر فيه الشعب الليبي من حكم السنوسي، ليتولى الشعب حكم نفسه، وليعيد صياغة الحياة على أرض ليبيا وعلى النحو المطلوب. وكارثة المحامي الشاب أنه عاش حتى رأى ذلك اليوم، وعاش حتى جاء «سنوسي» آخر أصغر سنًّا، ويرتدي زيًّا مختلفًا، ويقود ليبيا في مهمة ليست مؤهلة لها، ولم يرشحها أحد للقيام بها! ومأساة المحامي الشاب أنه عاش حتى رأى المحاماة مهنة غير مرغوب فيها، وحتى رأى المحامي مجرد صعلوك فضولي طفيلي لا يريده أحد.

ودخلت مع المحامي الشاب عددًا من البيوت الليبية، من مختلف الصنايع والطبقات. قضينا ليلة في بيت محامٍ أكبر سنًّا، وقضينا ليلة أخرى في بيت فلاح، وقضينا ليلة ثالثة في بيتِ صحفي مفصول من

الخدمة وممنوع عليه العمل في مهنة الصحافة، وقضينا ليلة حافلة في بيت تاجر يبيع الملبوسات المستوردة من إيطاليا، وعلى اختلاف الصنايع والرتب كان الجميع يتكلمون لغة واحدة ويشعرون بنفس المرارة، ولهم أمنية واحدة هي: أن يغادروا ليبيا اليوم قبل الغد، وأن يذهبوا إلى أي مكان.. لا شيء يهم. وأدركت من خلال الدردشة مع الجميع، أن أحدًا في ليبيا لا يستطيع أن يتنبأ ـ حتى ولو كان عرافًا ـ ما الذي سوف يأتي به اليوم، ولا ما الذي يخبئه الغد؟ ولكن الحياة تمضي بهم دقيقة بدقيقة، وثانية بثانية.

وجهاز التليفزيون هو الذي يصدر القوانين، وهو الذي يسن الضرائب، وهو الذي يذيع أخبار الإعدامات التي تمت بالأمس! ويفاجأ المواطن الليبي وهو جالس أمام التليفزيون، بأن أحد أقربائه أو أحد أصدقائه أو أحد معارفه قُتل. ليه؟ وما هي التهمة؟ وأين جرت المحاكمة؟ ومن هو القاضي؟ ومن هم الشهود؟ وما هي الأدلة؟ كل هذا لا أحد يعرفه، وما جدوى أن يعرفه أحد؟ يكفي أن الإعدام قد تم تنفيذه، ومن فضل الله أن التليفزيون يذيع الخبر على الناس!

وعندما أمعنت النظر في التجربة الليبية أدركت أن التبسيط هو مأساتها. فالزعيم عبد الناصر كان زعيمًا للعرب لأنه حاول توحيدهم، إذن.. فليحاول الزعيم الآخر توحيد العرب أيضًا. وما دام يحاول، سيصبح حتمًا زعيمها. والزعيم عبد الناصر كان زعيمًا وطنيًّا لأنه حارب الاستعمار، إذن... فليحاول الزعيم الآخر محاربة الاستعمار، وما دام يحارب ـ ولو حتى في الإذاعة ـ فقد صار زعيمًا وطنيًّا! وإذا كان في العالم نظريتان؛ الشيوعية والرأسمالية،

فلماذا لا يكون هناك نظرية ثالثة؟ ويكفي أن تكتب النظرية، وأن تطبع في كتب ملونة، وتردد فصولها في الإذاعة، ليصبح صاحبها هو زعيم القوة الثالثة! وهي عملية عبيطة أشبه بأن يقوم الممثل عادل إمام بـأدوار يوسف بك وهبي، أو يتدرب فاروق جعفر ليأخذ مكان مارادونا، أو ينهمك الفيلسوف زكي نجيب محمود في التدريب لينازل البطل محمد علي كلاي! فالزعيم عبد الناصر صار عبد الناصر لأنه كان في مصر، ومصر لها دور تلعبه منذ قديم الأزل. وستظل تلعبه إلى أن يشاء الله. والعبد لله مثلًا يمكنه أن يصبح بطل العالم في يوم من الأيام.. ولكن في لعب الكوتشينة! أما في المصارعة والملاكمة وشد الحبل، فالمحاولة لن تكون أكثر من عملية جنون، ولن تؤدي في النهاية إلا لمستشفى الصدر، وعلى أحسن الفروض.. مستشفى الخانكة!

وبعد عدة مشاوير في الشارع الليبي أدركت عمق المأساة وفداحتها.. كانت الشوارع خالية تقريبًا، وفي بعض الأماكن كان هناك زحام، فإذا اقتربت من الزحام اكتشفت أنهم جميعًا وافدون من مصر، جاءوا إلى ليبيا سعيًا وراء الرزق وعجبت لهذه المحاولات المستمرة لحشد الجماهير. فأين الجماهير التي تريد هذه الأجهزة أن تحشدها؟! الجماهير الليبية؟! إذا كان المقصود هؤلاء، فملعب كورة واحد يكفي لحشدهم! هل هي الجماهير المصرية الموجودة في ليبيا التي يريدون حشدها؟ الحقيقة أن هناك خطأ في التحليل بالنسبة لهذه الجماهير، ليس في ليبيا وحدها، ولكن في أماكن أخرى كثيرة، فهذه الجماهير التي تركت مصر إلى بقاع شتى في الأمة العربية، هدفها الأول هو البحث عن عمل، والسعي وراء

الرزق، ومحاولة تحسين الأحوال. ولكن بعض فلاسفة النظم العربية إياها يتصورون أن هذا الكم الهائل من الجماهير لم يخرج فقط من أجل الرزق، ولكن في أعماقه ثورة مكبوتة ضد الأوضاع في مصر، فهم ثوار دون إدراك، وهم مناضلون دون وعي. وكان نتيجة هذا التحليل الخطأ، فضائح ومصائب وأخطاء سياسية فادحة.. ومع ذلك لا يتعلمون!

وكان أعظم مثال على خطأ التحليل من جانب النظم إياها هو حزب الكهرباء، وكان بطل حزب الكهرباء المصري هو رجل اشتغل خادمًا في مكتب عبد الناصر. وكانت مهمته في المكتب هي تقديم الشاي والقهوة، وفتح الباب للضيوف والزوار. وفي زمن السادات هاجر الرجل من مصر وتسكع في بلاد كثيرة في العالم العربي، وأخيرًا اصطاده نظام عربي من إياهم، فصار الرجل زعيمًا لحزب مصري في المنفى، يرفع شعارات ثورية وتقدمية، ويشجب كل المخططات الاستعمارية والمؤامرات الإمبريالية، ويدعو إلى قيام الثورة العربية.. وبقيادة حزب الكهرباء! ولكن ما هو سر تسمية الحزب بحزب الكهرباء؟ السبب أنهم بحثوا عن وسيلة لتمويل الحزب، دون أن يتورط النظام الذي يرعاه مباشرة في هذا التمويل. وهداهم التفكير إلى إنشاء شركة كهرباء لتمويل هذا الحزب الحديدي، والذي كانت لجنته المركزية تتألف بالإضافة إلى الخادم إياه، من مهندس أرزقي، ومحام أرزقي، وشاب يشتغل بالسياسة باعتبارها أسهل طريق للرزق. وعندما وقع حادث المنصة يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١، أعلن رئيس حزب الكهرباء مسئوليته عن الحادث، وتفرغ عدة أيام بعد ذلك للإدلاء بأحاديث ثورية عن رأيه

في كل المشاكل، من أول مشكلة البحر الكاريبي، وإلى مشكلة فيتنام! حتى شركة الكهرباء التي أنشئت خصيصًا لتمويل الحزب الحديدي اكتشفوا أنها سجلت في جزر الباهامز، وباسم زعيم الحزب وزوجته والمهندس الأرزقي وحرمه!

ليبيا المسكينة هي الأخرى وقعت في هذا المطب، وأنشأت عدة أحزاب مصرية ثورية وعلى غرار حزب الكهرباء، كان أشهرها حزب تحرير مصر، ومن المضحك حقًّا أن أعضاء هذا الحزب يحررون الآن بعض الصحف داخل مصر وخارجها.

المهم، عشت في ليبيا أيامًا أتناول المبكبكة والبازين مع أفراد الشعب الليبي، وأغادر الشارع مسرعًا مع حلول المساء، فهكذا يتصرف الشعب الليبي، وكأن حظر التجول مفروض عليه. ومنذ حلول المساء لن تجد ليبيًّا في الشارع، ومن يقبض عليه في الليل ولو كان في طريقه إلى الطبيب، فسينام في السجن مدة قد تصل إلى أسبوعين، هذا إذا كان الليبي وديعًا وليس من هواة المشاكل. أما إذا اشتبك مع الشرطة في عراك. أو سب أحدهم، أو تهور فركل أحدهم، فالنتيجة الحتمية هي إذاعة اسمه ضمن قائمة الإعدامات في التليفزيون.

وفي تلك الأيام التي عشتها في ليبيا، والتي امتدت ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال، اكتشفت أيضًا أن السلطة التي تحكم ليبيا ليست واحدة، ولكنها عده سلطات. فبينما أبدى بعض المسئولين الصغار فتورهم نحوي بعد لقائي بالعقيد، أقبل على العبد لله مسئولون آخرون صغار أيضًا، ولكنهم يعملون في أجهزة منافسة، فهناك في

ليبيا أكثر من دولة، وأكثر من حكومة، وأكثر من مسئول. وقد تلقى حتفك ليس لأنك معارض، ولكن لأنك تعمل مع مسئول منافس يدبرون لخلعه أو تحجيمه. وكم من مسئول ليبي كان في القمة، ثم هوى فجأة إلى القاع! وكم من مسئول كان في القاع، ثم طفا فجأة على السطح! صراع السلطة على أشده بين الجميع ولن يتوقف قط، لأنه الأساس الذي تقوم عليه قيادة العقيد، كما أنه الضمان الوحيد لبقاء العقيد فوق القمة.

مأساة نعم، ولكنها مأساة متشابهة ومتكررة في أنحاء الوطن العربي، ضحيتها الوحيدة هو المواطن، وتخسر الأمة بعض أجزائها، وتفقد خطاها على الطريق، بسبب ممارسات مجنونة، ولكن كل شيء يهون طالما أن النظام موجود ومستمر. والإذاعة كفيلة بتغيير الحال، فالثورة مستمرة والوحدة على وشك القيام، والرايات مرفوعة والمعارك مستمرة، والكفاح دوار! ما الفرق بين النظام أيام السنوسي والنظام أيام مؤتمر الشعب العربي؟ لا شيء سوى أن أيام السنوسي كانت الحياة روتينية وخاملة وميتة ومملة، لا يقطع هذا الملل إلا مجيء شهر رمضان أو حلول عيد الأضحى. في عهد اللجان الشعبية الحياة مخيفة ومروعة ومفزعة ومملة أيضًا وكئيبة، لا يقطع هذا الملل إلا صوت المسيرات الشعبية، أو حلول موعد تنفيذ الإعدام في وجه جديد من الخونة، الذين لم يقرءوا الكتاب الأخضر، ولم يباركوا الوحدة مع مالطة، ولم يذهبوا مع الجيش الشعبي للقتال في أحراش بوروندي. وبعد ثلاثة أسابيع غادرت ليبيا.. وإلى الأبد.

بتوع الفريكيكو!

الحق أقول: إنني انبهرت بشدة بجمال المغرب العربي، جمال جاء نتيجة امتزاج الحضارة العربية بالحضارة الأوربية. هذا الامتزاج نتج عنه عصير سكلانس من حضارتين متناقضتين ومختلفتين على طول الخط، حضارة أوربية ترى أن الحياة فرصة يجب أن يستمتع بها الإنسان، ولأنها فرصة واحدة وأخيرة فلا بد للإنسان أن ينتهزها ويمصمصها حتى النخاع. وحضارة عربية إسلامية ترى أن الحياة مجرد كوبري إلى حياة أخرى أجمل وأكمل. والسعيد هو الذي لا يتوقف عند هذا الكوبري أو يتلكأ. المحظوظ هو الذي يمضي سريعًا وبعيدًا عن هذا الكوبري ليلقي بنفسه في أحضان الجنة حيث الراحة الأبدية والنعيم المستديم.

ولذلك رأيت في بلاد المغرب جامعات علم كجامعة الأزهر، ورأيت أحياء متعة ولا حي البيجال في باريس، ولا حي سوهو في لندن. ورأيت في مدينة فاس المغربية رجالًا أتقياء في مستوى السلف الصالح، وعرفت في مدينة المحمدية ـ المغرب أيضًا ـ ما لم تره عين ولا حتى في هونج كونج. وتعرفت في حي الزيتونة بتونس على رجال يقومون الليل ووجوههم في المصحف، ويسجدون

النهار ووجوههم نحو القبلة. ورأيت في بور سعيد نسوانًا زلط ملط، ورجالًا من بتوع الفريكيكو. وتناقشت حول هذه الظاهرة مع بعض المثقفين من المغرب العربي، وخرجت من المناقشة أن السبب في وجود الظاهرة وانتشارها هو تأثير الشاطئ الآخر من البحر، هناك في الأندلس حيث عاش العرب مئات السنين، ووصلوا في زحفهم حتى أبواب باريس، ثم تراجعوا إلى كتالونيا، وحطوا رحالهم في الكوستابرافا، وتمرغوا في حدائق الأندلس، وتمددوا في سهول غرناطة. هناك وعبر مئات السنين نشأ نموذج العربي الجديد.

وأشهد أن العرب لم يضيعوا وقتهم هدرًا خلال القرون التي عاشوها في إسبانيا. فقد أنتج الاندماج العربي الأوربي صنفًا من البشر ليس له مثيل في أي مكان. وأي بنت إسبانية ستجد لها ألف بنت تشبهها في طنجة وتونس والإسكندرية وبغداد والشارقة وصنعاء. والشعر المرخي على الأكتاف والعينان اللتان تطلقان رصاصًا في القلوب، والقوام الذي هو شيء بين غصن البان وعصا الخيزران.

واللغة العربية لا تزال باقية. وكل كلمة إسبانية تبدأ بـ «ال» التعريف هي كلمة عربية أصابها بعض التحريف، لكنها بقيت عربية على كل حال، فالقاضي هو «الكالدي»، والزيت «الثيت»، والزيتون «الزيتونث»، والثور «الطورس»، والوادي «الجوادي»، والحجارة «اليخارا»، والقصر «الكازار»، والحمراء «الهمبرا». و«التروبيدور» معناها الطرب يدور. و«الفلامنجو» معناها فلاح مغنٍّ أو المطرب الشعبي بلغة هذه الأيام. و«أوليه» هي الله باللغة الإسبانية. وألوف

من الكلمات العربية تجري على ألسنة أفراد الشعب الإسباني دون أن يدركوا حقيقتها.

ولكن الإسبان للأسف الشديد يشعرون بمرارة نحو العرب، ويقولون: إن العرب فتحوا إسبانيا مرتين؛ مرة بقيادة موسى بن نصير ومرة بقيادة فرانكو! وأصل الحكاية أنه عندما نشبت الحرب الأهلية الإسبانية، كان فرانكو قائدًا عامًّا للفرقة الإسبانية في المغرب. وعبر فرانكو البحر إلى إسبانيا بقوات مغربية، وعندما تحقق له الانتصار أباح لجنوده المغاربة مدينة مدريد لمدة أسبوع. ولا يزال الأحياء من أهل مدريد يذكرون تلك الأيام ككابوس ثقيل. وحفظ فرانكو الجميل لهؤلاء، فاحتفظ بالفرقة المغربية كحرس خاص حتى يوم وفاته. وكان أهم قادة الجيش الإسباني مغربيًّا يدعى محمد مزيان، وظل في منصبه حتى بلغ الثامنة والسبعين، ولم يترك منصبه إلا بالموت!

وتجولت طويلًا في الأرض التي كانت عربية، أطوف بعواصم المجد القديمة: قرطبة، وطليطلة، والأندلس، ومجريط «مدريد في لغة أهل الأندلس». ولا تزال قصور العرب القديمة شاهدة على حضارتهم العظيمة، ولا تزال جامعاتهم ومعاهدهم الموسيقية تحكي للأجيال قصة المجد الذي كان. مساكين القيسية واليمنية من أهل ذلك الزمان، تحاربوا بالسيوف حتى تكسرت، وبالرماح حتى تحطمت، وبالنبال حتى تمزقت، ثم تجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان!

يحكى أن حاكم الأندلس يوسف بن فهري، كان له أعداء

ينافسونه على السلطة، ولكنه تمكن منهم أخيرًا، وذبحهم جميعًا، ثم أمر بأن يمد له السماط على جثث لم تبرد بعد. ويقال إنه تناول طعامه وهو جالس على الجثث الغارقة في الدماء، وإنه تجشأ بعدما انتهى من طعامه وقال قولة شهيرة: «والله ما ذقت طعامًا أهنأ من هذا قط!».

وقفت أتفرج على أطلال مدينة توليدو، وفي العين دمعة، وفي القلب حسرات! لقد رأيت مثل هذا المنظر كثيرًا: في القاهرة القديمة، وفي بغداد القديمة، وفي دمشق القديمة.. الهندسة والرسوم والأطلال ذاتها! وكدت أركع، وأقبل الأرض التي صافحتها أقدام أبطال العرب القدامى عندما كانوا رجالًا، وأمعنوا غربًا إلى أن وصلوا إلى ميناء طولون الفرنسي، ثم عادت أقدامهم فانسحبت من الأرض عندما تحول أحفاد هؤلاء الأبطال إلى أشباه رجال، وظلوا ينسحبون منها في كرم زائد إلى أن خرجوا منها في مشهد ذليل، ولم يخلفوا لنا إلا الذكريات البغيضة مكللة بالعار!

يا للأيام التعيسة الحزينة التي عشتها في الأندلس، أكاد أبكي على المجد الذي ولّى، والعصر الذهبي الذي ضاع! من هذه النافذة التي فتحها العرب. تعلمت أوربا الموسيقى ونقلت «ألف ليلة وليلة» ودرست تعاليم ابن رشد، وتتلمذت على الفارابي وابن الهيثم وابن خلدون! تصوروا.. لو بقيت شبه جزيزة أيبيريا ـ إسبانيا والبرتغال ـ عربية حتى يومنا هذا فأي عز لنا، وأي ظهر نستند إليه؟ وليتنا نتعلم من أخطائنا! ولكن فلسطين ضاعت منا كما ضاعت الأندلس بسبب ألاعيب نوري السعيد وغباء الملك فاروق، وتدبير الخونة والجواسيس، وجهل الأئمة في اليمن، وخيبة الجميع! ثم

ضاع النصف الآخر بسبب نظم الانفتاح والتصحيح والتلقيح، والسعي إلى تسوية تضمن كراسي الحكم لحكام لفظتهم شعوبهم، ومستعدين للتضحية بكل شيء إلا السلطة وصولجان الحكم! وضاعت فلسطين أيضًا بفضل نظم ثورية اكتفت بإعلان الحرب ضد العدو في الإذاعة، ومقارعته بقصائد الشعر، وحشد كتائب الأناشيد، وتحقيق النصر عن طريق الأغاني.

ولكن فلسطين رغم كل شيء. تبقى جزيرة صغيرة محصورة داخل بحر العرب. وفي يوم ما، في شهر ما، في عام ما، في قرن ما، سيخرج من أصلاب هذه الأمة زعيم «شارب من بز أمه»، يوحد أمة العرب كما صلاح الدين، ويرفع سيفه كما قطز، يزحف بهم ليحرر القدس السليبة وعكّا الأسيرة. ويا حظ الأجيال السعيدة المقبلة التي ستعيش في ذلك العصر المجيد.

ويا عمق الحسرة التي شعرت بها ذات يوم على شاطئ الكوستابرافا، التقيت ببنت إسبانية ترطن باللسان الإسبانيولي ولا تعرف غيره، البنت اسمها «فاتيما» وقالت: تيمنًا باسم القديسة سانت فاتيما. وعبثًا حاولت إفهامها أن فاتيما اسم عربي وأصله فاطمة، وأن القديسة إياها لا بد أنها هي السيدة فاطمة بنت النبي، أو ربما هي فاطمة أخرى من شيخات المغرب المباركات، وبعد سقوط الدولة العربية في الأندلس حولوا الشيخة فاطمة إلى سانت فاتيما، تمامًا كما حولوا المساجد إلى كنائس، وحولوا دور العلم العربية إلى مزارات للسياح. البنت شكلها عربي، لو سارت في شوارع المغرب، أو مشت في شوارع القاهرة، أو تسكعت في شوارع بغداد، لما استطاع أحد اكتشاف أنها من غير أهل البلاد.

عزمتني البنت على أكلة في بيتها، أكلة دسمة ولذيذة يطلقون عليها اسم «بهية»، هي نفسها الأكلة العربية الشهيرة في المغرب، والتي يطلقون عليها اسم «بقية». وهي عبارة عن تورلي أو خليط من عدة خضراوات وأصناف لحوم؛ بطاطس على قلقاس على سبانخ على قرنبيط على كوسة على طماطم على جزر على بصل على ثوم، على قطع من لحم الضأن ولحم الدجاج ولحم السمك، على زيت على لبن على ملح على سكر على جبنة على مربى، على أي شيء وعلى كل شيء، فهي بواقٍ من كل الأصناف والأنواع، وبدلًا من التخلص منها بإلقائها في صندوق الزبالة، اخترعت المرأة العربية هذه الأكلة اللذيذة الظريفة، التي أشهد أنني لم أتذوق مثلها إلا في طاجن الحاج سرور أبو هاشم وفي عزبة صديقي الفلاح إبراهيم نافع. وعندما قلت هذا الكلام لشقيقة البنت فاتيما ـ وكانت تعرف الإنجليزية ـ نفت ذلك بشدة، وأكدت أنها أكلة إسبانية، وأن عرب إسبانيا نقلوها إلى المغرب بعد رحيلهم إلى هناك. وقالت البنت لتأكيد رأيها: إن المرأة الإسبانية حريصة، بينما المرأة العربية مسرفة. ثم التفتت نحوي وتحفزت كنمر شرس وقالت: ألم تر العرب في إسبانيا اليوم؟ إنهم هناك على الشواطئ يعيشون جميعًا كملوك القرن السادس عشر، ويبعثرون الأموال، كما يبعثر الأطفال ذرات الرمال على الشاطئ. وسكت لم أتكلم. صدقت البنت الإسبانية، فمن ير عرب اليوم خصوصًا في إسبانيا، فلن تقدر قوة على ظهر الأرض أن تقنعه بأن عرب اليوم هم أحفاد عرب الأمس الذين كانوا أشاوس، وكانوا أبطالًا، وكانوا فرسانًا، وأنهم فتحوا العالم بإيمانهم وبسيوفهم!

ويذهب عرب اليوم إلى إسبانيا فلا يقضون نهارهم إلا في النوم، ولا يقضون ليلهم إلا في كازينوهات القمار، ولا يرون من الإسبان إلا نماذج معينة، هي دائمًا نماذج من بتوع الفريكيكو!

وكم شعرت بغصة وأنا جالس في حلبة المصارعة أشاهد معركة بين الثور والإنسان. وهي لعبة أدخلها العرب إلى إسبانيا ومارسوها قرونًا طويلة قبل أن تصبح علامة على الإسبان. وكل الأسماء المتداولة في اللعبة عربية: «التورس» هو الثور، و«الميتادور» وهو البطل الذي يتولى الإجهاز على الثور بسيفه؛ أصلها كلمة عربية معناها الموت للثور. وكان بطل الحلبة ـ ولا يزال ـ يتقدم إلى المنصة التي يجلس فيها الوالي قديمًا والمحافظ حديثًا، ويطلب الإذن له بالإجهاز على الثور، وكان الوالي قديمًا يرفع يده ويأذن له قائلًا: «الموت للثور»، وحرفها الإسبان مع القرون والسنين إلى «الميتادور».

ما أعمق الشجن الذي تثيره في النفس زيارة بلاد الأندلس، البلاد التي اضطر العرب إلى الرحيل عنها بعد أن تمزقت دولتهم إلى إمارات وممالك، وبعد ان تقاتلوا فيما بينهم حتى تكسرت الرماح والسيوف فتقاتلوا بالفئوس حتى تحطمت، وتجاذبوا بالشعور والأظافر والأسنان، واضطر آخر ملوكهم إلى البكاء وهو يغادر الشاطئ الإسباني، راحلًا في مركب تعيس إلى الشاطئ المغربي.. بكى آخر ملوك العرب وهو يلقي آخر نظرة على الشاطئ الأندلسي، فنهرته أمه بشدة وزجرته بعنف، وقالت له: «ابكِ كالنساء على مُلك لم تستطع أن تحافظ عليه كالرجال!». ما أحوجنا نحن العرب اليوم، إلى أن يبكي كل فرد منا كالنساء، على فلسطين التي ضاعت منا، ولم نستطع أن نحافظ عليها كالرجال!

وإن طال السفر

وإذا كان المغرب العربي قد بهرني بجمال الطبيعة والخضرة الدائمة كأنما هو ضاحية في جنة عدن، فقد هزتني شبه الجزيرة العربية أكثر، وبهرني كل شيء هناك، حتى البداوة والجهالة، ونمط السلوك الذي كان سائدًا في عصور ما قبل التاريخ! وبعد رحلة شاقة مملة مرهقة، هبطت الطائرة في أرض خلاء يقال لها مطار، في ركن من أقصى بقعة في شبه الجزيرة. وبالرغم من أننا وصلنا في الظلام، إلا أننا لم نلمح أي أثر لأنوار المطار، وخيل إلينا أننا نهبط هبوطًا اضطراريًّا في المحيط الهندي. وعندما استوت الطائرة تجري على الأرض الصلبة، هتفت من أعماقي كما هتف العربي القديم: «لا بد من صنعا وإن طال السفر»!

هذه إذن صنعاء وكل شيء على حاله منذ جدنا آدم عليه رضوان الله ـ آسف وأعتذر، والاعتذار أتقدم به إلى سيدنا آدم عليه السلام؛ لأنه لو قام من قبره وتجول في أنحاء اليمن التي رأيتها وقتئذ لتحسر على سوء الأحوال الذي تردت إليه البشرية من بعده، ولانفطر قلبه حزنًا على أبنائه الذين يقاسون كل هذه الأحوال! حتى الطبيعة

ساءت عما كانت عليه عندما خلقها الله! الجبال نفسها أضحت أكثر جهامة وأكثر قتامة، ولا حول ولا قوة إلا بالله! والشوارع.. أي شوارع؟! أقصد المسالك، مشقوقة وهكذا بلا قصد ولا نظام، كأنها دروب مهجورة داخل غابة انزلقت من ذاكرة الزمان! يا للهول، على رأي عمنا يوسف وهبي. هل هذه هي اليمن السعيدة؟! وأي سعادة في أن يحيا الإنسان غارقًا هكذا في الوحل؟! سابحًا هكذا في الصمت؟! مخنوقًا هكذا في الخوف والرعب والاضطهاد؟!

وكان الملك أحمد، أو الإمام أحمد، أو سيف الإسلام أحمد، جالسًا على سرير الملك لحظة صافحت قدماي أرض اليمن. أو بمعنى أصح، كان نائما على سرير الملك، ولم يكن معه من أدوات الحكم إلا سيفه وبطشه، وكل مآثره في سنوات حكمه السعيد، وهو سعيد باعتبار اليمن سعيدة، أقول: كانت كل مآثره مئات من الرءوس تولى قطعها بسيوف صدئة، لدرجة أن القتيل كان يرشو السياف لكي يختار سيفًا أكثر حدة!

ولم يكن في اليمن شعب، ولكن كانت فيها قبائل. وكان رؤساء القبائل يؤمنون بأن الإمام أحمد فيه سر من عند الله، فهو يعلم ما تهمس به الشفاه وما تخفيه الصدور! ولكن اليمني العاقل كان لا يخفي رأيه بل يجهر به حتى يقبض عليه الإمام ويقتله. وكان لحظة القتل يتقدم إلى السياف، والبِشر يطفح من وجهه، والبسمة تحتل مكانًا عريضًا على شفتيه! ويموت اليمني العاقل آخر سعادة وانسجام! ويحسده غيره من أهل اليمن ويحقدون عليه لأنه مات تاركًا إياهم في جحيم الإمام! ولم يكن في اليمن إلا طبيب إيطالي واحد لزوم معالجة أسنان الإمام. ولم تكن في صنعاء العاصمة إلا

صيدلية واحدة تغلق أبوابها مع غروب الشمس، فإذا أحس أحد اليمنيين بمغص أو بصداع، دق أبواب قصر الإمام طالبًا حبة أسبرين أو جرعة دواء!

وكان المواطن اليمني إذا فكر في السفر من مكان إلى مكان فهو إما فدائي وإما مجنون! وإذا التقى يمني بآخر بعد الغروب فهو إما قاتل أو مقتول، وكان الإنجليز يحتلون اليمن الآخر. وكان الإمام يحتل اليمن الذي نزلنا فيه. وأشهد شهادة حق لله وللتاريخ أن الاستعمار البريطاني كان أخف وطأة من الاستعمار الإمامي، وأن نظامًا مثل هذا ليس له مثيل في أي زمان أو مكان، حتى ولا أيام الهكسوس!

كانت المناسبة التي نزلنا فيها اليمن هي الاحتفال بالوحدة الورقية التي قامت بين اليمن والجمهورية العربية المتحدة. ولكن حتى هذه الوحدة الورقية أقلقت هؤلاء الذين يتربصون بالعرب الدوائر. وهؤلاء المتربصون أجانب أحيانًا، وعرب أحيانًا أخرى. ولله في خلقه شئون! ويبدو أن الإمام أحمد قد استجاب لإغراء الرشوة فأنشد يوم الاحتفال قصيدة من نظمه:

نريدها وحدة بيننا مبنية

على أسس بيننا مرعية

يكون عمادها المحبة والوئام

وأساسها حكم الشريعة والإسلام

وأضاف إليها أحد الظرفاء من عنده:

ويكون رئيسها جلالة الإمام

واشرب كوكولا واتمدد وانام!

وألحَّ على عقلي سؤال بلا جواب: هل هذه هي اليمن حقًّا؟! هل هذه أرض بلقيس وسد مأرب؟! أمن هنا سارت الجحافل اليمنية تفتح الأرض في سبيل الله؟! لقد أنجبت هذه الأرض على طول الزمان أشجع رجال العرب، وأشدهم بأسًا على الإطلاق. واليمني لا يعرف قلبه الخوف، وهو إذا حارب دمر كل شيء أمامه أو دمر نفسه، لأنه لا يعرف الانسحاب حتى ولو كان «طبقًا لخطة موضوعة»، كبلاغات الحرب هذه الأيام! طيب... إذا كان اليمني الفرد لا يعرف الخوف طريقه إلى قلبه، وإذا كان المحارب اليمني لا يتقهقر على الإطلاق، فلماذا إذن تقهقر اليمن الوطن بضع مئات الألوف من السنوات إلى الوراء؟! ولماذا انسحب اليمن الشعب لا يلوي على شيء، حتى أشرف على هامش الزمان والمكان؟! واختلست نظرة إلى الحصن الذي يتقوقع داخله الإمام. إنه فرد واحد، ولكنه حقق النصر الحاسم على شعب بأسره وألحق به هزيمة منكرة، وفشل في ذلك عشرات القادة والجيوش على مر الزمان! من هنا يبرز دور الفرد في التاريخ.

وعشت أيامًا في صنعاء لم نر فيها شيئًا ولم نتصل بأحد.. حتى الذين حاولنا أن نتحدث إليهم كانوا يفرون من وجوهنا كأنهم أصحاء يفرون منا حتى لا نصيبهم بالجرب! وعدنا من حيث أتينا، لم نتعرف على اليمن، ولم تتعرف علينا اليمن! ولكن ظلت اليمن

ماثلة أمامي لا تبرح خيالي قط. وتصورت أنني لا أرى اليمن في حياتي. ربما سنحت الظروف لأبنائي أو أحفادي.

ولكن، لأن زمن المعجزات لم يذهب بعد، فقد حدثت المعجزة: مات الإمام أحمد وتولى الإمام البدر وقامت الثورة في اليمن! ثورة في اليمن؟! هذا هو الذي حدث، وفر الإمام في ملابس النساء، وقامت الدنيا في العالم العربي ولم تقعد بعد! ذهب جيش مصر ليحمي الثورة في اليمن. وذهبت جيوش المرتزقة والخونة لتعيد عقارب الساعة إلى الوراء. وأتيح للعبد لله أن يذهب مرة أخرى إلى اليمن. ولكنها كانت يمن جديدة ومختلفة. كانت المعارك على أشدها والشهداء يسقطون كل يوم بالمئات، وبعض القبائل حولت حرب التحرير إلى مباراة، فيوم هنا ويوم هناك! وبالرغم من المعارك والدماء والمآسي، استطعت أن أتعرف على اليمن، وذهبت مع اليمني إلى الجبهة، ولمست بنفسي شجاعة اليمني على الجانبين. وغبت عن الوعي مع اليمني أمضغ نبات القات. وجلست على مائدة اليمني ألتهم «أم الصحن». وخرجت بنتيجة باهرة؛ أن اليمني لا يزال هو اليمني بكل أصوله وصفاته، لم تستطع الأمراض والجهل وحكم الإمامة أن تقضي على جوهره، وإن قضت على هيكله! صحيح أن الجلد أصبح على العظم، ولكن الذكاء الموروث ظل كامنًا يبدو في بريق العينين، وعلى سطح الجلد نفسه!

ولقد أتيح لي أن أشهد بعينَيْ رأسي نبض الحياة، وهو يعود بالتدريج إلى جثة اليمن: مدارس جديدة، ومستشفيات حديثة، وشوارع شقت على عجل، وساحات كانت أرضًا مهجورة في ظل

الإمام، ورأيت أول جماعة من المهاجرين عادت إلى اليمن بعد الثورة. جاءت مستريبة في كل شيء، لا تصدق أن الإمام قد انتهى. وهؤلاء الذين صدقوا نهاية الإمامة كانوا يعتقدون أن السلال هو مجرد إمام جديد حل محل الإمام الذي سقط!

والتقيت بفتاة في عمر الورد ترتدي البنطلون وبلوزة على اللحم، جاءت مع المهاجرين لتشاهد بنفسها البعث الجديد في اليمن. ولما أبديت دهشتي من وجود فتاة يمنية بالبنطلون، قالت البنت وهي تضحك: لعلك لا تعرف أن البنطلون في اليمن حق النساء. أما التنورة فهي حق الرجل! وقال لي ضابط مصري كبير في صنعاء: هذه حقيقة. وكانت أخطر إشاعة أطلقها رجال الإمام ضد جيش مصر تقول لأهل اليمن: انظروا إلى هؤلاء الجنود المصريين، إنهم يرتدون البناطيل التي هي حق النساء، إنها الدليل القاطع على أن هؤلاء الجنود أجانب وكفرة، وليسوا من جنس العرب! وقالت لي اليمنية المتبنطلة: أنا أعيش في إفريقيا منذ عشرين سنة، وغادرت اليمن وعمري ثلاثة أعوام مع والدي الذي آثر الفرار من حكم الإمام إلى الغابات والوحوش الكاسرة. ولقد خرجنا من اليمن بلا شيء تقريبا ونحن الآن نملك ثروة لا بأس بها. والحق أقول: إن كل الذين هربوا من الإمام خرجوا بلا شيء تقريبًا، ولكنهم استطاعوا بعد فترة أن يصبحوا أثرياء للغاية. فاليمني ذكي وشجاع وصبور وقادر على التكيف مع أي بيئة والعيش في أي مجتمع.

منذ ربع قرن تقريبًا كنت في طنجة، وكانت طنجة دولية، وكانت تعيش فيها كل المِلل والأجناس.. إلا جنس العرب: خواجات على

قفا مين يشيل، وهنود بعدد النجوم، وصينيون بعدد الحصى، ويونانيون وقبارصة، ويهود أكثر من الهم على القلب، وناس من مالطة، وناس من جزر هاواي. يا ميت ندامة على هذا البلد العربي، ليس فيه إلا سكانه وهم على ما يبدو جميعًا من أتباع المرحوم غاندي، فلا ملابس ولا مأوى ولا طعام! ودخلت السوق في القصبة ذات يوم وسألني التاجر: هل أنت هندي؟ وأجبته بالنفي. فسألني: هل أنت إسباني؟ وأجبته بالنفي. فسألني: هل أنت إسرائيلي؟ ولما بدا الاشمئزاز على وجهي، قال: إذن أنت عربي؟ فلما أجبته بالإيجاب، مد يده مصافحًا وقال بلغة عربية سليمة: كيف حالك؟ وظننته من أهل البلاد، ثم اكتشفت بعد ذلك أنه أخ عربي من اليمن قال لي الأخ عبد الواسع: نحن هنا حوالي ثلاثة آلاف يمني يعمل أغلبنا في التجارة، وبعضنا يعمل في مجال الحرف!

مرة أخرى منذ عشرين عامًا كنت في زيارة خاطفة لهونج كونج، وأردت شراء بعض الملابس، ولكني ترددت في آخر لحظة، وعندما سألني رفيقي في الرحلة عن سبب ترددي، قلت له بالعربية: يظهر أنهم حرامية وغشاشون، وضحك التاجر واكتشفت أنه من اليمن! ما أكثر الإخوة اليمنيين الذين تصادفهم في طريقك في كل مكان في لندن ووارسو وباريس ومالطة ومدريد. وكلهم تجار، وكلهم آخر نجاح وآخر جدعنة! واليمني ظريف ولطيف ومهذب وناعم للغاية، ولكنه أسد مفترس إذا لزم الأمر!

كنت في زيارة لعلي العواضي، وكان وزيرًا للحربية في وقت ما بعد الثورة، وكان الوزير في جلسة قات مع بعض القادة، حين دخل عليه ضابط برتبة صغيرة يبلغه نبأ القبض على أحد المفسدين.

وقال الوزير على الفور: «بز رأس أبوه»، وكان يقصد اقطع رقبته. ثم جلس يمضغ القات في هدوء! وعندما خرجنا من المنزل رأيت عددًا من الصِّبْية يلعبون برأس المفسد المقطوعة مباراة حامية في كرة القدم! وسألني زميل في الرحلة: الآن بدأت اليمن، فكم من السنين تُقدر لها لكي تصبح جوهرة لها شأنها في قلادة العرب؟ قلت: هذا يتوقف على أحوال العرب، إذا بقيت هكذا على حالها وظل الحال هكذا على عفونته فلن تقوم لليمن قائمة. قال زميلي: ليه؟ قلت: هذه قصة أخرى!

* * *

ولكن يبدو أن نظرتي إلى مستقبل اليمن كانت تحمل كثيرًا من التشاؤم. فأحوال العرب ازدادت سوءا. وربما لم يشهد العالم العربي عصرًا أسوأ من هذا العصر الذي نعيش فيه. لم يقف تقسيم المغرب العربي عند حد المغرب والجزائر وتونس وليبيا فقط، زاد الخير خيرين فنشأت دولة جديدة هي الصحراء، وأضيفت إلى حكومات العرب حكومة جديدة هي الحكومة الصحراوية. وبينما تضاعفت أغاني الوحدة ازداد التقسيم، حتى وصل إلى حد تقسيم مدينة بيروت إلى شرقية وغربية.

وبالرغم من ذلك حققت اليمن معجزة بكل المقاييس. تخلصت اليمن من نظام العشائر والقبائل، ونفضت عن كاهلها حكم الأئمة، وتحولت صنعاء إلى مدينة عصرية، وفتحت المدارس أبوابها لاستقبال ألوف الصبيان والبنات، ودارت المطابع تطبع الصحف والكتب والبحوث العلمية. وشهدت اليمن طفرة فنية وصار للفن

اليمني مكان محجوز في أجهزة إعلام الأمة، وأصبحت اليمن سندًا ودعمًا لقضايا العرب. وما أصعبها في عصرنا الحديث! معجزة نادرة الحدوث، ولكنها في اليمن حدثت. وهي لم تحدث بسهولة، ولكنها تعرضت لهزات ونكسات، وأوشكت أحيانًا على الإجهاض. ولكنها تغلبت ـ بالرغم من ذلك ـ على ظروفها الصعبة. وعاشت اليمن التي كانت سعيدة تحاول صنع المستحيل لتصبح سعيدة من جديد. معجزة... نعم، تحققت بفضل شعب اليمن، وأيضًا بفضل العسكري المصري المجهول، الذي مات على قمم الجبال هناك، وفي سهول اليمن الفسيحة. والمعجزة الأكبر أن شعب اليمن لم ينكر فضل العسكري المصري المجهول ـ كما حدث في أجزاء شتى على اتساع الوطن العربي ـ فهم يذكرونه بالخير، ويشكرونه دائمًا، ويحمدون فضله، باعتبار أنه لولاه، ولولا بندقيته التي سارعت في بداية الثورة لحمايته ومساندته، لولا هذه البندقية، فربما كانت اليمن الآن في طريقها إلى العصر الحجري.

ولكن الحمد لله الذي أتاح لليمن ظروفًا مواتية، مكنتها من تحقيق المعجزة. ولأن ما حققته اليمن معجزة، فهي تحتاج إلى كتاب ضخم وليس إلى فصل من كتاب. وهو وعد من ابن عطوطة إذا امتد بنا العمر، وتوافر الوقت، وتحققت أمنية قديمة للعبد لله، وهي الطواف باليمن السعيدة، قرية قرية، ومدينة مدينة، في محاولة لاكتشاف جنس العرب. وباعتبار أن اليمن هي أرض العرب العرب. أما العرب خارجها ـ تاريخيًّا ـ فهم العرب المستعربون!

آلة الزمن

وتركت اليمن، التي ساءت أحوالها عما كانت عليه في عهد سيدنا آدم، إلى عمان. وكان السلطان سعيد بن تيمور لا يزال جاثمًا على أنفاس شعبه، وإن كانت كلمة «شعبه» لا تليق بوصف المخلوقات التي كان يحكمها السلطان. لم يكن هناك شعب، ولا حتى رعايا. وخُيل إليَّ من أول نظرة ألقيتها على البلاد أن هؤلاء الناس مجرد أسرى طال بهم الزمن، وأن عمان ليست وطنًا وإنما معسكر اعتقال كبير، وأن الداخل هنا مفقود والخارج مولود، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وأصابتني دهشة شديدة لأن الريال العماني يتمتع بقوة شرائية عظيمة. ولكن دهشتي تبخرت عندما اكتشفت أنه ليس في السلطنة كلها من يملك ريالًا إلا السلطان، وأن الريال يحتل في أذهان عمان صورة الأسطورة، بل إنه أصبح لدى البعض منهم شيئًا أشبه بالغول والعنقاء والخل الوفي! دولة تعيش في النصف الثاني من القرن العشرين، بلا ماء ولا كهرباء ولا شوارع ولا مقاهٍ، ولا حدائق ولا مواصلات. وللمدينة سور يغلق عليها بعد غروب الشمس، فإن وصل إليها أحد بعد ذلك نام خلف السور حتى الصبح! وسيئ الحظ

هو من يطلع عليه الصباح ويتمكن من اختراق السور، لأنه سيترك خرابة إلى خرائب أكثر وسيفارق خلاء إلى خلاء أوسع، وسيهرب من الذئاب إلى من هو أكثر ضراوة من الذئاب، وهو السلطان!

وفوجئت بأن كل شيء نادر وقليل في عمان، الماء والطعام والنقود. الشيء الوحيد الذي يوجد بوفرة هو الذقون، ذقون طويلة وكثة وغزيرة الشعر.والرجال جميعًا يتحلون بهذه الذقون ويدهنونها بالمسك والطيب! والشيء الآخر الذي يوجد بشكل أوفر من الذقون هو الأمراض السرية. فهي ترعى بين أفراد الشعب كحريق شبَّ فجأة في غابة أصابها الجفاف منذ زمن طويل!

ولقد مرت عليَّ فترة في صباي المبكر كنت أشعر فيها بأسف حقيقي؛ لأنني ولدت في القرن العشرين، وكنت أتمنى لو أنني جئت إلى الحياة في وقت ما من القرون الوسطى. ولكن عندما وقع بصري على أرض عمان حمدت الله لأن أمنيتي لم تتحقق، ولأنني في القرن العشرين، وفي بلد يطل عليه من قرب! فلقد شعرت لحظة دخولي مسقط أنني بعثت فجأة في مدينة عربية في عهد العباسيين! وأنني دخلت المدينة بعدما دمرها التتار بوقت قصير! لم تكن مسقط مدينة بالمعنى المحدد للكلمة، ولكن كانت هناك بضع قرى متقاربة، ولم يكن في هذه القرى شيء يوحي بالحياة إلا الأحياء الذين يدبون على الأرض في إعياء شديد!

والمرأة عورة لا يمكن أن تقع عين عليها، ولكن العالمين ببواطن الأمور يؤكدون أنها في «الواقع» أكثر حرية من بنات لندن وباريس! والمخدرات ممنوعة بأمر القانون، ولكن بالنظرة السطحية ستكتشف أن الشعب كله مسطول ومنسجم ومحلق في العلالي مع

دخان وضباب الحشيش! دخلت سوقًا مسقوفة وخيل إليَّ أن الباعة والتجار والزبائن جميعًا ممثلون كومبارس في فيلم عن عصر قديم! كان التجار يجلسون الواحد بجانب الآخر على الأرض، يعرضون بضاعتهم في قفف، وهي بضائع من الذهب إلى السمك، إلى التبغ، إلى الحلاوة المسقطية، إلى الموز، وهو موز إفريقي يكفي أن تضرب بواحدة منه عدوك فيسقط قتيلا في الحال! والناس أقرب إلى الهنود منهم إلى العرب، وإحساسهم بالانتماء العربي يكاد يكون منعدمًا.. والسبب هو حكم السلطنة الذي توجه بالصلات نحو الهند وباكستان، وتوجه بالركوع والسجود نحو إيران! ولذلك ستجد أن أكثر الأغاني هندية، وأكثر المصنوعات إيرانية، وأغلب العادات إفريقية، خصوصا إفريقيا الشرقية السوداء!

ولطمت على خدي حزنًا على المصير الذي انتهت إليه أرض عربية كانت درة في تاج العروبة، وكانت حجر الأساس في صرح العروبة وإلى زمن طويل! فإلى هذه البلاد كان ينتمي أعظم حكام إفريقيا الشرقية من دار السلام وزنجيبار أو «بر الزنج» كما كان يطلق عليها أيام المجد القديم! وإلى هذه البلاد أيضًا كان ينتمي آخر الملوك العرب في الكونغو أو ما يعرف الآن بزائير، وهو الملك «تيبوتيبو»، وكانت كاتنجا هي عاصمة ملكه، والذي داس الجنود البلجيك عرشه عندما دخلوا الكونغو منذ حوالي مائة عام لا تزيد! وهذه البلاد نفسها هي التي فرضت إتاوة على السفن البريطانية خلال رحلتها من الهند وإليها. وهي التي حطمت أسطول البرتغال في مياه الخليج، واستولت على كنوزه ومئات الأسرى الذين لا يزال أحفادهم يعيشون حتى الآن في إمارة رأس الخيمة، ويعرفون هناك باسم «الشحوح»!

ما الذي جرى حتى حدث هذا للبلد الذي كان يومًا ما أقوى دولة بالمنطقة، فأصبح الآن يستعين بالعساكر الأجانب لحماية عرش السلطان من غضبة الشعب المطعون؟! ما الذي جرى لصنف العرب حتى أصابهم كل هذا العطب؟ ولماذا صنف العرب وحدهم هم الذين تأخروا، بينما العالم من حولهم ينطلق في ثقة إلى الغد السعيد؟! إنها الفجوة التي حدثت بين بعض نظم الحكم في أجزاء من الوطن العربي والناس الذين أوقعهم سوء الحظ تحت حكم هذه النظم. ففي اليمن كان السبب هو الإمامة. وفي عمان كان السبب هو السلطنة.

وسلطان عمان كان يتمتع بجهل إمام اليمن، ولكنه لا يتمتع بذكائه! كان الإمام ذكيًّا رغم كل شيء وكان قويًّا أيضًا. بينما سلطان عمان كان أغبى من ثور، وأضعف من ذبابة! وكان الخطر الحقيقي يهب عليه من أجزاء أخرى في الوطن العربي.. أجزاء أخرى تحررت وهبت تصارع لتلحق بقطار الزمن الذي يكاد يغادر محطة القرن العشرين! لذلك عمد السلطان إلى إضعاف اللغة العربية حتى لا تقلق الإذاعات العربية أسماع مواطنيه، وشجع لغات أخرى تكفل له الراحة والطمأنينة. وانتهى بعد ذلك إلى إخفاء المدن خلف أسوار متينة البنيان، ثم إلى دفن البلد كله تحت تلال هائلة من الفقر والجوع والخرافة. ثم تتويج هذا كله بجهاز قهر مدرب، ولديه كل الإمكانات، وله كل الصلاحيات لقتل كل من تلوح عليه علامات الرفض أو المعارضة، وحتى عدم الموافقة على ما هو كائن، باعتبار أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان!

وبالرغم من الخيبة التي هي بالويبة، والوكسة التي هي أعظم

من النكسة، فقد رأيت في عمان ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، حضرت سوقًا للرقيق يباع فيها العبيد في المزاد! كانت البضاعة المعروضة عدة رجال، وعدة نساء، وعددًا قليلًا من الأطفال. وكان المشتري يتقدم من الطابور البائس يتحسس البضاعة قبل أن تبدأ عملية المساومة بين البائع والراغب في الشراء! كان الأطفال هم البضاعة المرغوبة، ثم النساء. وكان القطيع البائس أغلبه من إفريقيا. ولم تكن النساء المعروضات من النوع الذي يصلح للمتعة، بل كن جميعًا من الصنف الذي يصلح للخدمة. ولذلك فقد كان المشتري الذي تقدم ليدفع الثمن، من رجال السلطان. وهؤلاء النسوة سيقمن بالخدمة في حريم السلطان، فقد كانت الخدمة وقفًا على الحريم الأفارقة، أما المتعة فكانت من نصيب الأتراك والهنود وبعض النسوة من سنغافورة وإندونسيا وسيام! وكان ثمن البني آدم الحي الذي تجري الدماء ساخنة في عروقه ثلاثين ريالًا عمانيًّا لا أكثر ولا أقل! هذا للرجل أو المرأة. أما الطفل فكان ثمنه يزيد قليلًا، حتى يصل إلى الخمسين ريالًا. وعندما انفضت السوق، كان التاجر قد تبقى معه عدد من الأرقاء، بعضهم كبار السن ربطهم جميعًا في حبل وافترش الأرض معهم وجلس يعد النقود، ثم نهض يسحبهم خلف ظهره في رحلته إلى المجهول في «بلاد السلطان»!

وقادني رفيقي ذات ليلة إلى منزل منعزل في حي الهنود حيث تدور ليالي المتعة للأجانب المقيمين في مسقط. واستقبلتنا امرأة هندية بدينة تتحلى بمصاغ من ذهب لو تحلى به جمل لما استطاع أن يسير! وأدخلتنا المرأة حجرة عارية من الأثاث فجلسنا على حصيرة مفروشة وعليها بعض الوسائد المتناثرة هنا وهناك، ثم دخلت فتاتان هنديتان تدوران حول الرابعة عشرة وربما أقل من ذلك بعدة شهور.

ونظرت إلينا الفتاتان في غباء شديد، ثم تعرتا تمامًا في هدوء. وراحت إحداهما تعزف على آلة، بينما راحت الأخرى ترقص وقد بدا عليها التوتر والخوف الشديد! وفي ليلة أخرى سحبني رفيقي من يدي إلى بيت آخر، في حي اليمنية حيث دخان الحشيش يعبق في كل أرجاء البيت، وعدد من المدمنين من أهل البلاد يدخن بشراهة صنفًا رديئًا لو دخنه حمار لنام مكانه يتثاءب لمدة عام!

وقال صاحبي الذي كان على علم شديد بأحوال البلاد والعباد في عمان: لو كان في السلطنة مستشفيات بعدد هذه البيوت لصارت عمان واحدة من أعظم البلدان.

وكان رفيقي في السفر تاجرا كبيرا من دولة الإمارات. ودخلت عمان معه باعتباري سكرتيره الخاص، والجنسية فلسطيني الأصل من عكا، والاسم «أحمد الترماني العكاوي». وكان التاجر العربي على صلة وثيقة وطيبة بحكام البلاد. وبالرغم من ذلك كان شهمًا إلى الحد الذي جعله يقبل بهذه المغامرة. ولو انكشف أمري هناك لفقدت رأسي إلى الأبد، ولفقد هو الآخر رأس ماله الذي يصل في عمان إلى سبعة أصفار! كان الرجل رغم غناه يحب عبد الناصر بجنون، وكان يرى فيه فتى العرب القومي، وصوت العروبة المعبر، وذراعها الممدودة في وجه الأعداء. وكان يعتقد أنه لو لا عبد الناصر لابتلعت المنطقة إيرانُ. كنا نجلس وقتها في بيت المخدرات. ولذلك انطلق الرجل يتكلم دون خوف. فهنا المكان الوحيد الذي لن يستمع إليك فيه أحد ؛ لأن الكل هنا مسطول وضائع، وآخر انسجام! وبينما كانت حلقات الدخان تنعقد فوق رءوسنا داخل البيت الصغير في ضواحي مسقط، كانت مدافع الثوار تنطلق

في رأس الجبل الأخضر. وكانت رائحة البارود تختلط برائحة الحشيش في مسقط! ثم فجأة جاء قابوس. واستبشر الناس خيرًا. وكان قابوس عند حسن ظن الناس واستطاع بمعجزة نقل عمان من القرن الأول الميلادي إلى القرن التاسع عشر.

* * *

ولسوء الحظ لم أشاهد عمان في وضعها الجديد، ولكني استطعت أن أدرك عمق التغير الذي حدث هناك. وكانت وسائلي إلى معرفة هذا التغيير وسائل غير تقليدية. شاهدت فريق عمان في كرة القدم في «دورة الخليج عام ١٩٧٦»، ثم شاهدته في دورة الخليج عام ١٩٧٨، ثم شاهدته في دورة ١٩٨٠، ثم في دورة ١٩٨٢، ثم في دورة ١٩٨٤، ثم في دورة ١٩٨٦. وأشهد أن التطور الذي حدث في فريق كرة القدم لا يمكن حدوثه في أرض خراب. ليس هذا فقط، ولكني أرشح فريق عمان إلى بطولة دورة الخليج القادمة وأرشحه للمنافسة على بطولة آسيا القادمة! معجزة لا شك، خصوصا إذا علمتم أنه في عهد سعيد بن تيمور كان لعب الكرة جريمة، وكان ارتداء زي الكرة رجسًا من عمل الشيطان!

وسيلتي أيضًا لمعرفة ما جرى في عمان، هي فرقة عمان المسرحية، وقد اشتركت في مسابقة مسرح الخليج لعام ١٩٨٧. وبالطبع فازت الكويت بالجائزة الأولى، وفازت الإمارات بالجائزة الثانية، وفازت قطر بالجائزة الثالثة. طيب.. وأين فرقة عمان؟ لقد حققت ما هو أخطر من الجوائز. فازت الممثلة «منى» من فرقة عمان بجائزة أحسن ممثلة. يا سبحان الله، منذ خمسة عشر عامًا كان اسم المرأة عورة، وكان خروج المرأة إلى الشارع يجلب النحس

للجميع. وكان «التشخيص» عملية كفر بالله وخروج على ناموسه! لدرجة أن مراسلًا أجنبيًا زعم في تحقيق صحفي عن عمان، أنها البلد الوحيد على ظهر الأرض الذي يحتفل بزواج الذكور! ربما كانت مبالغة أو أكذوبة من جانب المراسل الأجنبي، ولكن المرأة في عمان لم يكن لها مكان إلا في مطبخ البيت، وغير مسموح لها بالقيام بأي رحلة إلا رحلتها النهائية إلى القبور. ولك أن تتصور ما الذي يحدث في عمان إذا عرفت أن فتاة من بناتها حصلت على جائزة أحسن ممثلة في مسابقة مسرح الخليج.

الوسيلة الأخيرة التي كانت دليلي إلى التغيير الذي حدث في عمان هي أحاديث الأصدقاء الذين عملوا في حكوماتها وقضوا سنوات هناك. أحدهم هو الصديق الكريم المستشار صلاح نصار. كان وصفه لعمان شديد التركيز، وفصيح التعبير أيضًا. قال وهو يتحدث عن تجربته هناك: بلد يلتقي فيه القديم والجديد، ويأخذ أحسن ما في القديم، وأفضل ما في الجديد، وسيصنع من هذا المزيج شيئًا رائعًا وغير مسبوق في يوم من الأيام.

إن ما حدث في عمان هو «حالة»، وهي كأي حالة تحتاج إلى مراقبة ومتابعة وفحص. وهو إجراء يحتاج إلى وقت. ولأننا لا نملك هذا الوقت، فنحن لا نستطيع أن نقدم تقريرًا طبيًا يشخص الحالة، ويمكن الاعتماد عليه. ولكن كل ما نملك قوله عن حالة عمان: إنها بلد كان مصابًا بواحد من أخطر الأمراض المستعصية، ولكنها تمكنت من الخلاص منه، وإن كانت لا تزال تعاني من آثاره، ولكنها في طريقها إلى الشفاء التام، وقد يستغرق الشفاء وقتًا، ولكن الأكيد أنها ستشفى. معجزة.. أليس كذلك؟!

الشيخ لعبوط

ولقد خرجنا من أرض الظلمات بأعجوبة. وقطعناها من مسقط إلى واحة البوريمي على حدود الربع الخالي، صحراء العرب الميتة التي اكتشفها نيابة عنهم عدد من الرواد الأجانب! وكانت البوريمي موضع نزاع لحظة أن وصلنا إليها، الشيخ شخبوط يقول: إنها من أملاكه، والملك سعود يطالب بها أيضًا، وسعيد بن تيمور له حصة فيها ويحمد الله على ذلك! وكان شخبوط حاكمًا من طراز فريد. كان الحاكم القوي في رأيه هو الحاكم الذي يعاقب الرعية، وكانت السياسة عنده هي العناد. ولم يلحظ الشيخ شخبوط عمق التغيير الذي طرأ على العالم. وبالرغم من تفجير الأرض تحت قدميه بالنفط، وبالرغم من امتلاء خزانته بأوراق النقد ـ ولم يكن هناك أي فرق بين خزانة الدولة وخزانة شخبوط ـ إلا أن إمارة أبو ظبي ظلت على حالها. فالسعيد من أهلها من يجد تمرا. والمحظوظ هو من يصادف عين ماء، أما من انفتحت لهم طاقة القدر، فقد تمكنوا من الهروب من قبضة الشيخ شخبوط!

وعندما نزلت العين (قسم من أقسام البوريمي) كان الشتاء يزحف

نحو النهاية، ولكن الجو كان دافئًا والشمس تلعلع في العلالي، وعيون الماء تجري تحت الأقدام. وثمة مزروعات ولكن قليلة. والناس تهمهم ولا تتكلم. ومقهى واحد ورواد قلائل، ولكن يبدو من المنظر العام أنهم في المقهى وفي أماكنهم منذ مائة عام! ولكني بعد يوم واحد في العين اكتشفت أن هؤلاء البشر الذين تصورت أنهم يغطون في النوم، قوم أذكياء وأنهم عرب، ولكن العين بصيرة واليد قصيرة. فما العمل، والشيخ شخبوط يركب آلة الزمن ويطلقها بأقصى سرعة إلى الوراء؟!

ولقد ألهمتني هذه الزيارة السريعة مسلسلة إذاعية تحت عنوان «الشيخ لعبوط يتلعبط»: قصة رجل ضايع ذهب إلى لندن للعلاج، فألقت القبض عليه مخابرات بريطانيا، ونقلته إلى دار الضيافة، وحددت له موعدًا مع الملكة، ولما حاول الرجل الاستفسار عن سر هذه «العملية» الغريبة، جاءه الجواب بأن مخابرات بريطانيا لا تفوتها واردة ولا شاردة، وأنه مهما حاول التخفي والتنكر فكل شيء يمكن اكتشافه، خصوصًا لدى مخابرات بريطانيا، وأفهموه أنهم عرفوا حقيقته منذ أول لحظة صافحت فيها قدماه أرض لندن، فهو الشيخ لعبوط ولا أحد سواه! وحاول الرجل التخلص من هذه الورطة دون جدوى فقد وقَّعوا معه معاهدة، وتولى تأليف حكومة، وقدم طلبًا للجامعة العربية، وأصدر بيانًا مشتركًا مع الشيخ فلحوط يدعو فيه إلى السلام العالمي والسلام الملكي والسلام الوطني.. والسلام عليكم ورحمة الله! ولقد ذاعت هذه المسلسلة وشاعت في كل أرجاء الخليج. واعتبر كل شيخ أنه المقصود بهذه السخرية المرة. والواقع أنني لم أقصد أحدا معينا على الإطلاق! والمنظر

الذي رأيته في العين خلال تلك الزيارة القصيرة، التي مرت في حياتي كالحلم، كان حلما فظيعا كالكابوس!

ويبدو أن السماء قد استمعت إلى دعائي، فقد أطاح الشيخ زايد بالشيخ شخبوط وتولى السلطة مكانه، وقالت الناس: شيخ آخر جديد! وما الذي يمكن أن يفعله زايد في هذه الرقعة الضيقة من الأرض، وبين هذا العدد القليل من الناس؟! ولكن ـ والحق أقول ـ زايد كان شيئًا آخر مختلفًا. ولقد اكتشفت السلطة الجديدة شيئًا لا يمكن أن يصدقه عقل. ففي خزانة الشيخ شخبوط عثر الشيخ زايد على أوراق نقد، كل ورقة تحمل رقم مليون دينار. وقد طبعت هذه الأوراق في بنك إنجلترا، وبطلب خاص من الشيخ شخبوط. وكانت هذه الأوراق هي ثمن بواكير النفط الذي بدأ يتدفق من أرض الإمارة! ولم يكن شخبوط يعلم أن للنقود وظيفة سوى دفنها في الخزائن! وقيل إنه كان يفتح الخزينة المتخمة بملايين الدينارات ويهتف صائحًا: «غري غيري»! فقد كان يعتقد أيضًا أن آبار البترول هي ملك خاص به، وأنها هدية السماء له هو شخصيًّا! أما شعب الإمارة، أما شعب الإمارات، أما شعب العرب، فلكل فرد منهم رب يحميه!

ولقد قدر لي أن أعود مرة أخرى إلى الخليج، ولم تكن قوات بريطانيا قد تخلت عن قواعدها بعد. ولما كان حصول العربي العادي على تأشيرة دخول إلى الخليج شيئًا دونه ضرب الرقاب، فما بالك بتأشيرة دخول للعبد لله؟! ومن سجنني هناك دخل الجنة وعلى رأسه قنديل، ومن قتلني دخل الجنة وعلى رأسه قنديلان... والله أعلم؟! ولكني استطعت، بالرغم من كل شيء دخول

الخليج ووضعت اسمي في طلب تأشيرة دخول جماعية لفريق كرة قدم مصري كان في طريقه إلى لعب بعض المباريات مع أبناء الخليج. وضم الكشف أسماء أمهر لعيبة كرة القدم في مصر: شحتة وأبو جريشة ورفعت الفناجيلي ومصطفى رياض والعربي ومحمود السعدني.. وآخرين! وهكذا عدت إلى إمارة أبو ظبي صحفيًّا في ملابس كرة القدم!

وفي الليل جاءني المستشار الصحفي السابق للشيخ زايد؛ رجاء مكاوي، وقال: الشيخ زايد في انتظارك. وتصورته لقاء عاصفًا بين الشيخ الجديد والصحفي الذي هاجم أخاه. ولكني اكتشفت، بعد أول دقيقة من اللقاء أن كل ما تصورته كان وهمًا، فها هو الشيخ زايد جالس على الأرض يحدق في وجهي طويلًا، ثم يقول: أنت هاجمت الشيخ شخبوط، ولكن أنا خلعته! وراح الشيخ زايد يتحدث عن أحلامه، أو أوهامه ـ كما تصورت! ها نحن الآن ـ والحديث لزايد ـ نضع أقدامنا على أول الطريق، وسنبني أبو ظبي، ليس من أجل أبو ظبي ذاتها، ولكن من أجل قيام دولة واحدة كبرى من جميع إمارات الخليج، دولة تضم حتى البحرين وقطر وإمارات ساحل عمان المتصالحة. وجهودنا لن تتوقف عند هذا الحد، بل ستكون هذه الدولة مجرد نواة لدولة الوحدة التي نحلم بها جميعًا، والتي تمتد من طنجة إلى صنعاء، ومن كركوك إلى جوبا. وراح يتحدث عن أبو ظبي التي يحلم بها، أبو ظبي المدارس والمساكن والشوارع والساحات والمستشفيات والجامعات والموانئ والمطارات. وشد الشيخ زايد على يدي، وقال وهو يودعني: أرجوك أن تعود إلينا بعد بضع سنوات ثم احكم لنا أو علينا. إننا سنعمل على مهل وفي تؤدة،

لأن المثل العربي يقول: «الحصان القوي يتأخر في بداية السباق». والمثل العربي يقول أيضًا: «المليح يبطئ»!

ولقد جرى هذا اللقاء مع الشيخ زايد ذات مساء في أواخر ١٩٦٧. ولم يكن في أبو ظبي كلها فندق، ولم يكن فيها معالم، حتى مباراة كرة القدم التي جرت بين الفريق المصري والفريق الظبياني جرت على أرض خراب! وقلت في نفسي: كيف سيتمكن الشيخ زايد من تحقيق أحلامه مهما أوتي من حسن النية وعلو الهمة؟! صحيح النوايا طيبة، ولكن الواقع مر! وصحيح الحصان الجيد يتأخر في أول السباق، ولكن أين هو السباق؟!

وكان الرجل الثاني الذي التقيته في أبو ظبي شابًّا عربيًّا حتى النخاع، ذكرني بهؤلاء الرجال الأوائل الذين قامت على أكتافهم دولة العرب في الزمان الخالي. كان محدثي هو أحمد خليفة السويدي، وكان يشغل منصب رئيس الديوان الأميري. ولم يكن هناك ديوان بالمعنى المعروف، ولكن بعض الموظفين وبعض الأوراق. وكان السويدي يحلم هو الآخر بدولة تمتد من البحرين إلى رأس الخيمة. وقال في هدوء شديد وبلا أي انفعال: نستطيع أن نقيم مثل هذه الدولة في عهد زايد، فهو من هذا الطراز من الرجال الذين ينظرون إلى بعيد. وهو حاكم بالموهبة ووحدوي بالفطرة. وهو عربي من أصلاب عربية يحلم دائمًا بدولة العرب الكبرى حيث الراية الواحدة والجيش الواحد الذي يزحف في كل اتجاه لتكون كلمة الله هي العليا. وكان هذا هو الجانب المشرق في إمارة أبو ظبي.

وعلى الناحية الأخرى، كانت هناك جماعات أخرى مشغولة باغتراف كنوز الذهب التي لا تنضب، ولسان حالها يردد: «هذا من نفط ربي» كانت بواكير الثراء قد ظهرت على البعض، وجنون النفط يسري في الإمارة الصغيرة كالنار في الهشيم. وكان على الشيخ زايد أن يقاتل في كل الجبهات: الإنجليز المستعمرين، والوافدين الطامعين، ونماذج من أهل البلاد تريد الاستئثار بالثروة والسلطة معًا. ولكن شابًّا عربيًّا من فلسطين قال لي وهو يفرك يديه سرورًا: سينتصر زايد في النهاية. وكان الشاب الفلسطيني العربي يخطو خطواته الأولى على أرض أبو ظبي، وقد افتتح لنفسه مقهى على الشاطئ، ونثر بعض المقاعد على الرمال، وبدأ يستقبل بعض الرواد في أمسيات الصيف الخانق. قال لي «أبو طافش»: الشيخ زايد عربي أصيل، ولذلك ستتحقق أحلامه. لقد جاء إلى هنا وجلس على هذا المقعد (وأشار إلى مقعد غير بعيد) ولما عرف أنني عربي من فلسطين، شجعني بكلمات حلوة وبمبلغ من المال، وقال لأفراد حاشيته: «عاونوه جميعكم وذللوا له العقبات، إنني أريد للإمارة وجها عربيا حقيقيا، وأي عربي هنا هذه بلاده. إن الخطة الجهنمية لأعدائنا هي تعريب الحكم وتدويل الشعب. ولكننا عازمون على تعريب الحكم والشعب معا».

وقضيت أسبوعًا في إمارة أبو ظبي أتنقل بين كثبان الرمال، والجرافات الضخمة تعمل بلا هوادة لتمهيد الأرض، وأنوار المراكب التي ترسو بالقرب من الشاطئ ـ ولا أقول من الميناء، فلم يكن ثمة ميناء بعد ـ تقيم مدينة كبرى داخل الخليج. وبعض العمال من بلاد بعيدة غريبة ينحنون على الأرض في عمل دائم، وأموال

كالماء تنساب على الرمل. ولما أبديت ملاحظة حول ضخامة الأموال التي تنفق، همس مرافقي في أذني: هذا على أي حال خير من كنزها في خزائن من الصلب.

لقد قدر للعبد لله أن يرى الحياة وهي تنشأ على أرض الإمارة. ولقد واصلت النشوء رغم العقبات والمعوقات والمؤامرات في الداخل والخارج. وبالرغم من جندي الحدود الذي استوقفني على بعد أربعين كيلو مترا من قصر الشيخ زايد ليفتح حقائبي ويتفحص جواز سفري ويلقي على وجهي نظرة مريبة، فقد كنت في طريقي إلى إمارة دبي، وهتفت من شدة الغيظ: «يا رب الجنود، متى تهلك هذه الحدود؟».

ويبدو أن الله قد استجاب لدعائي، فبعد سنوات قليلة انهارت الحدود والسدود بين الإمارات السبع، وكان ذلك في مصلحة التجارة وحركة المال، وصارت الطرق سالكة بين أبو ظبي ودبي، وعجمان وأم القوين، والفجيرة ورأس الخيمة، وبينها جميعًا والشارقة. وصار زايد أميرًا للدولة الجديدة وراشد بن مكتوم نائبًا للرئيس، وجميع الحكام أعضاء في المجلس الأعلى الذي يحكم الدولة. وتسابق المهاجرون إلى الدولة الجديدة التي تحولت في سنوات تعد على أصابع اليد إلى واحدة من أهم الدول العربية. وصار الشيخ زايد حاكمًا محبوبًا لدى الجماهير العربية، فهو لم يشترك في أي مشاكل عربية، وهو دائمًا حاضر معهم بالمدد في حروبهم، وبشخصه في مشاكلهم. وانشقت الأرض في دولة الإمارات عن ثلاث مدن جميلة: أبو ظبي ودبي والشارقة. وامتدت الحدائق واتسعت، وصارت أبو ظبي ـ للعجب ـ أكثر اخضرارًا

من تونس الخضراء. وعندما زرتها آخر مرة في عام ١٩٨٥ وقفت مبهورًا لا أصدق ما أرى، لقد صارت الأرض المهجورة أجمل مدينة على اتساع الوطن العربي!

ولكن مأساتنا نحن العرب أننا نبدأ المشاوير، ثم ينتابنا الملل فنتوقف، مشروع الوحدة في دولة الإمارات، صار وحدة في «الشكل» أكثر منها وحدة في «المضمون»، وتضخمت المشاكل بسبب أطماع الحكام وضيق أفق بعض المسئولين وشراهة بعض المستفيدين، فتوقف الاتحاد عند فتح الحدود وتوحيد مناهج التعليم، وفيما عدا ذلك، فكل إمارة لها جيشها الخاص وإعلامها المستقل!

وفي أبو ظبي مثلًا تليفزيون ومحطة إذاعة، وفي دبي تليفزيون ومحطة إذاعة، والشارقة تستعد لافتتاح محطة تليفزيون، مع أن المسافة بينها وبين دبي، كالمسافة بين مهبط الطائرات في أي مطار وموظف الجمارك! وأشهد أن الصحافة في الإمارات متقدمة، وتعتبر من أنشط الصحف العربية، ولكن في أبو ظبي أربع جرائد يومية وسبع مجلات أسبوعية، وفي دبي جريدة يومية، وفي الشارقة جريدة يومية، مع أن عدد القراء في الإمارات لا يزيد على خمسين ألف قارئ في عموم دولة الاتحاد! ولهذا السبب أهدرت أموال كثيرة، وتبددت جهود ضخمة.

وحتى الأسعار اختلفت من إمارة إلى أخرى، وفي بعض الأحيان وصل إيجار الشقة في أبو ظبي مائة ألف درهم في العام، ووصل إيجارها في دبي ستين ألف درهم، وفي الشارقة وصل إيجار الشقة

ثلاثين ألف درهم، وتستطيع أن تستأجر نفس الشقة في عجمان بعشرة آلاف درهم... لا تزيد! ولكن يبقى الشيخ زايد وسط هذا الهم كله متمسكًا بالاتحاد، حريصًا عليه، إلى درجة أن أغلب ميزانية الاتحاد من جيبه الخاص. وبالرغم من المتاعب والمشاكل في دولة الاتحاد، إلا أنه سعيد الحظ من العرب من يقيم في دولة الاتحاد، وأسعد منه من يزورها في الشتاء!

وإذا كان عمنا ابن خلدون قد التفت إلى ملاحظة مهمة للغاية في مقدمته الشهيرة، عندما قال: «وآفة العرب حب الرئاسة»، فإن هذه الملاحظة الذكية ستجد لها تطبيقًا عمليًّا على أرض دولة اتحاد الإمارات. وثبت أننا نحن العرب لا نستطيع أن نتوحد حتى في رقعة من الصحراء ليس فيها إلا سبع مدن جميلة وشعب طيب!

الأرض بتتكلم.. هندي!

هناك نكتة مشهورة، وهي أن حكومة أجنبية أرسلت أحد رجالها في بعثة لدراسة اللغة العربية، قبل تعيينه ممثلًا لها في إمارة دبي. وبعد ما استكمل تعليمه، وأتقن اللغة العربية، سافر إلى دبي، وبعد أسبوع من إقامته هناك، أرسل برقية هذا نصها: لقد حدث خطأ ما، لا أحد هنا يتكلم العربية إلا الحاكم! وهذه النكتة صحيحة رغم كل شيء. فعندما دخلت دبي من الناحية الغربية تصورت أنني في أصفهان. وعندما دخلت قسمها الشرقي تصورت أنني في مدينة من مدن الهند. وعليك لكي تتفاهم في دبي أن تتقن الهندية أو الفارسية. أما العربية فستحتاج إليها إذا كنت ستقابل الأمير.

ولقد فوجئت حقًّا لحظة دخولي دبي. فهذه مدينة حقيقية، فيها مظاهر عمران، وتقدم كل الخدمات. وهي شديدة الشبه ببيروت في الخمسينيات. وفيها إدارة ذكية وحازمة ونشطة. وليس في الإمارة نفط، ولكنها استغنت عن النفط بنظام تجاري مفتوح يسمح بالتهريب والتهليب، ولكن وفقًا لخطة موضوعة. وتستطيع أن تشتري في دبي كل شيء، الذهب والسلاح والحشيش وجواز

السفر فلا شيء هنا ممنوع ما دمت تدفع الثمن، وما دام التاجر يدفع النسبة المطلوبة. الشيء الممنوع هنا، هو أن تكون نصابًا أو شحاتًا، أو جيوبك خالية من النقود. وميناء دبي الذي يبعد بضع ساعات عن ميناء بندر عباس، مفتوح كأبواب جهنم لاستقبال ألوف الوافدين من كل مكان، من إيران والهند وإفريقيا وباكستان.

وستجد في دبي قرى هندية بأكملها، وستجد أحياء إيرانية بأكملها، وأسواقًا كاملة ليس فيها سوى صنف البلوش! ولكن أخطر من ذلك أن أغلب الذين يرتدون الدشداشة والعقال ويتاجرون بالملايين ويتكلمون العربية بفصاحة، هم في الأصل ليسوا عربًا، وليس فيهم من العروبة إلا الزي واللسان، وهؤلاء يحاربون أي محاولة للوحدة، ويقفون في وجه أي خطوة نحو التقارب الحقيقي بين الإمارات. إن التمزق هو ضمان بقائهم الوحيد، وأي وحدة حقيقية فيها تهديد مباشر لمصالحهم، وهي بداية النهاية بالنسبة إلى وضعهم المميز والفريد.

ذات يوم ذهب صحفي عربي يعمل في جريدة تصدر في إمارة قريبة، والتقى بمسئول كبير في دبي، وعندما وجه إليه سؤالًا محرجًا، نظر المسئول إلى الحراس، فقاموا بجر الصحفي من رجله إلى الشارع، وتركوه في وحل الطريق بلا سؤال ولا كلام!

وذات مرة هبط الإمارة شاعر أرزقي مغمور من لبنان، وطلب مقابلة مسئول كبير. وعندما جلس الضيف أمام المسئول، فتح حقيبته الأنيقة، وأخرج منها قصيدة عصماء في مدح صفات المسئول وكرمه وعظيم أخلاقه، فما كان من المسئول إلا أن انتزع

القصيدة من يدي الشاعر ومزقها، وقال له: ظننت أن معك مشروعًا تجاريًّا تريد أن تبحث تفاصيله معي، أما والأمر كذلك، فأنت محبوس حتى تغادر هذه البلاد! فالقاعدة في دبي.. التجارة أولًا ثم الصحافة والشعر والفن والكلام الفارغ!

كانت تلك هي الحال في دبي عام ١٩٦٧ حين صافحت قدماي أرضها أول مرة ولكن.. لأن قوانين الطبيعة لا تخطئ، ولأن كل فعل له رد فعل مساو له في القوة ومضاد له في الاتجاه، فقد التقيت بحركة ثورية في دبي.. تصوروا.. حركة ثورية؟! وهي حركة ثورية حقيقية عمادها بعض الشباب العرب، وهي تشارك مشاركة فعلية في الأحداث، ولها صوت مسموع رغم أنها تعمل في الخفاء، وتركز همها على قيام دولة الاتحاد.

وقال لي أحد زعماء الحركة العربية في دبي: إننا نعمل هنا على أرض صلبة، فكل العرب في هذه الإمارة معنا، صحيح أنهم أقلية، ولكنهم الرأي العام! أما الأغلبية الأجنبية فهي ليست معنا، كما أنها ليست ضدنا، لأنها تعمل في واد آخر معزول. أما الأعداء الحقيقيون، فهم الأجانب الذين استعربوا، وهؤلاء ليسوا ضدنا نحن فقط، ولكنهم ضد العرب بوجه عام وضد أي اتحاد بين الإمارات، كما أنهم ضد أي اتصال بالوطن العربي! وقال لي الشاب العربي الثائر ونحن نجلس ذات مساء على شاطئ الخليج: تصور، لقد فتشوا أمتعتك وأنت في طريقك إلينا من إمارة أبو ظبي، وسيفتشونك مرة أخرى وأنت في طريقك من هنا إلى إمارة الشارقة، رغم أن بيننا وبين الشارقة خمسة عشر كيلو مترًا لا تزيد. وسيفتشونك بعد ذلك بين كل إمارة وأخرى رغم أن عجمان تبعد عن الشارقة ثلاثة

كيلو مترات! هل يتصور أحد أن وضعًا مثل هذا يمكن أن يستمر؟! ولذلك فنحن واثقون من النجاح رغم الصعوبات والأخطار.

* * *

ولقد خرجت من دولة دبي، أو إمارة دبي إلى دولة الشارقة على مرمى حجر.. تصوروا؟! وعلى الحدود راية مختلفة، وعساكر شرطة، ورجال جمارك، مع أن الجميع يتكلمون العربية ويدينون بالواحد القهار، ويؤمنون بالعروبة، ويهتفون للوحدة اللي ما يغلبها غلاب! والحق أقول إن معاملة عساكر الشارقة كانت ودية، والناس في الشارقة أكثر طيبة، لأنهم أقل اشتغالًا وانشغالًا بالمكاسب والتهليب والتجارة.

كانت الشارقة لحظة دخلتها قرية متواضعة، وأحوال سكانها أكثر تواضعًا من القرية، وأميرها الشيخ خالد أكثر تواضعًا من القرية ومن الناس. ورغم كل شيء كانت الشارقة نقطة مضيئة في بحر السواد الشامل، فأغلب أهلها تلقوا قدرًا متفاوتًا من التعليم. والبنت الشارقية لا تختفي في عباءة، وهي تذهب إلى المدرسة وتعمل أحيانًا، وهي تقرأ وتكتب في جميع الأحوال. ولم يكن في الشارقة أحد من صنف الهنود أو الفرس، وكان بعض أبنائها يحاولون العمل في الصحافة، لكن في الكويت، وكان أشهر هؤلاء تريام عمران وشقيقه.

ولكن الذي أسعدني في الشارقة هو وجود زراعة هناك، وهم يزرعون بعض الخضراوات لتكفيهم ذل انتظار ما تأتي به السيارات من خارج الحدود، وهذه السيارات قد تأتي أحيانًا ولكنها غالبًا لا تأتي.

ولقد عشت في الشارقة ثلاثة أيام ونزلت في قصر كان يطل على البحر، ونمت في الحجرة ذاتها، التي نام فيها جلالة الملك حسين. ودخلت القاعدة البريطانية التي كانت مصدر الرزق لأغلب السكان، ثم قررت بعدها ألا أتقدم خطوة أخرى على ساحل عمان، وأن أكتفي بهذا القدر، وأن أعود أدراجي.. وكفى الله المؤمنين شر التجوال! وتعجبت وقتئذ كيف تدهورت الأحوال في هذه الإمارات إلى هذا الحد الرهيب؟! وكيف تحول أشهر بحارة العرب، وأشهر صيادي اللؤلؤ إلى مجرد مخلوقات تعيش على ما يجود به المستعمر من مساعدات؟! وخرجت بنتيجة غريبة، إنه الحظ السيئ والظروف التعيسة، وبعض المشايخ الذين عقدوا المعاهدات مع حكومة بريطانيا، ونصوا فيها على أنها سارية المفعول «حتى يشيب الغراب!» أما الحظ السيئ، فهو وقوع الإمارات في طريق الهند، وكانت بريطانيا الإمبراطورية مستعدة للتفريط في كل شيء إلا طريق الهند.

أما الظروف التعيسة، فهي خلو البلاد من أي مصدر للرزق. فلم يكن النفط قد تفجر من الأرض بعد، والزراعة نادرة كأنها مشاتل للتجارب، أكثر منها مزارع للاستغلال، وأكثر السكان رحلوا إلى السعودية، وإلى الكويت، وإلى قطر، وبعضهم ذهب بعيدًا إلى عمان وإلى الهند.

وأما بعض المشايخ، فقد كانوا مجرد موظفين في معسكرات الإنجليز، وكانت مهمتهم تنحصر في تأديب المخالفين والتفاهم مع السكان وإبلاغهم تعليمات الإنجليز والفصل في المنازعات

بين القبائل، وحضور قعدات الشاي والبخور في الليل، وتربية الصقور لزوم الفشخرة والقنص.

وبلغ تدهور الأحوال حدًا جعل نشرة الأخبار في إذاعة المعسكر الإنجليزي يتصدرها خبر وصول سيارة الشحن رقم كذا من إمارة أبو ظبي مثلًا إلى إمارة دبي، ويعلن المذيع في صوت وقور أن شاحنة وصلت بأمان الله وعليها شحنتها كاملة! ذلك لأن الطرق لم تكن طرقًا بالمعنى المعروف، ولكنها كانت مدقات في رمال الصحراء. وإذا نجت السيارة من الرمال خطفها قطاع الطرق، فإن نجت من قطاع الطرق فلن تنجو من قطعان الذئاب الجائعة أو السيول المدمرة. ولذلك فوصول الشاحنة يعتبر خبرًا يستحق أن يتصدر نشرة الأخبار. ولم تكن هذه إذاعات بالمعنى المعروف الآن، ولكن كانت توجد في كل معسكر إنجليزي محطة إذاعة خاصة به، وكان يذيع نشرات الأخبار باللغة الإنجليزية وموسيقى راقصة وبعض الأوامر والتعليمات، ثم كان يخصص ساعة واحدة كل مساء لإذاعة برنامج باللغة العربية لسكان الإمارة.

أين ذلك كله مما يحدث الآن هناك؟ وفي دولة الإمارات الآن ست محطات إذاعة كل منها قادرة على تغطية المنطقة العربية كلها، وست محطات تليفزيون ملونة، وثلاث محطات للأقمار الصناعية. لدرجة أن إمارة رأس الخيمة تستطيع الاتصال مباشرة هاتفيا بأي ركن على سطح الأرض، مع أن عدد أجهزة الهاتف فيها لا يزيد على ألف جهاز، كما أن عدد سكانها لا يزيدون على خمسة عشر ألف نسمة، وكان في استطاعتهم أن يتنادوا عبر النوافذ! ولكن سبحان مُغير الأحوال، من الضنك الشديد إلى الإسراف الشديد،

ومن الفرجة على خيال الظل مرة كل عيد إلى مشاهدة المباريات المهمة والاستعراضات العالمية حية وعلى الهواء.

ولكن أغرب شيء وأخطر شيء هو وجود خلية من الشباب اجتمعت بهم في الشارقة ذات مساء، شباب في عمر الورد يعملون في السر وفي صمت، ويؤمنون بالقومية وبعبد الناصر وبالوحدة من الخليج إلى المحيط. ولست أذكر الأسماء الآن، فقد أصبح بعضهم وزراء ومسئولين في الدولة الجديدة، وقد غير بعضهم مواقعه وتلاءم مع الوضع الجديد.. أو تلاءم عليه، وبعضهم صار مليونيرًا يربح عشرات الألوف من مكالمة تليفونية، وينفق عشرات الألوف في سهرة واحدة.. حمراء أم زرقاء!

ولقد كانت الوحدة بين الإمارات حلمًا فصارت حقيقة، وإن كانت حقيقة مشوهة، إلا أنها حقيقة واقعة على كل حال. واستطاعت رغم كل شيء أن تقدم بعض الإنجازات. فلم تعد الإذاعة تذيع نبأ وصول الشاحنة رقم كذا، لأن طابور الشاحنات لا ينقطع ليل نهار على الطرق الحديثة التي تربط الإمارات. وأزيز الطائرات لا ينقطع لحظة في جو الإمارات، وصوت الإذاعات لا يتوقف، وصور التليفزيونات لا تختفي.

لقد هبت الحياة فجأة واقفة على قدم وساق في ساحل عمان الميت، وبدأت الوحدة زحفها، ولن يستطيع أحد وقفها، لأنه لم يخلق بعد هذا الذي يستطيع أن يعيد عقارب الساعة إلى الوراء.

وقبل أن أغادر الإمارات، صرخت من أعماقي: «يا كاشف الغمة... ساعد أصحاب الهمة...!».

فجاءة الذي... فجأة!

وإذا كنت قد اكتشفت جديدا في ساحل عمان.. فقد فشلت في اكتشاف أي شيء جديد أو قديم في قطر. كانت قطر هي آخر قرية كبيرة. وبدلًا من المعسكر كانت هناك شركة النفط، ثم عشرات من التجار الأقوياء. وإن كان أغلبهم من أصول غير عربية.

وإذا كان أهل الإمارات يمتازون بالدماثة والسماحة والدهاء الشديد، فالقطري جاف الطبع وحاد المزاج. وهو فخور بتاريخه القديم بمناسبة ومن غير مناسبة. كان القطري يفخر بأنه من نسل قطري بن الفجاءة. وتسأل عن أمجاد القطري. ويكون الجواب أنه من قطر. وأنه كان في رحلة إلى بلاد اليمن. ثم جاء إلى قطر، فسمي فجاءة!

والمثقف القطري يفخر أيضًا بأن حركة القرامطة ظهرت بوادرها الأولى في قطر. وإن كان هناك قول آخر للتاريخ بأن الحركة ظهرت في البحرين، إلا أن القطري المثقف يسوق لك ألف دليل على أنها هبت من قطر، وأن ابن قرمط كان قطريا يحمل الجنسية القطرية.

وربما استبدت الحماسة بالمثقف القطري، فأكد لك أنه كان يعمل في شركة النفط في قطر.

وقد شهدت قطر في الخمسينيات والستينيات دعوات تنادي بعدم تدريس تاريخ مصر والعراق وسوريا وغيرها لطلبة قطر، والاكتفاء بتدريس تاريخ قطر. وعدم تدريس جغرافية الوطن العربي، والاكتفاء بتدريس جغرافية الخليج. ولكن حظ قطر الحسن أنها نجحت في التغلب على هذه الدعوات. وربما يمكن القول الآن ـ وفي منتهى الأمانة ـ بأن نظام التعليم في قطر يعتبر من أرقى نظم التعليم في الوطن العربي. وكان ذلك بفضل وزير التعليم السابق، وأيضًا بفضل عربي من مصر اسمه «كمال ناجي».

وسيبقى لقطر فضل على منطقة الخليج ـ بعد الكويت بالطبع ـ أنها كانت كعبة كل المهاجرين من إمارات ساحل عمان، ففيها شركة للنفط، وفيها حركة تجارية نشيطة. وأسباب العيش متوافرة إلى حد كبير. كما أنها كانت مقصدا لطلاب العلم. فأحمد خليفة السويدي مثلًا، أقام وتعلم وعمل في قطر فترة طويلة من الزمان، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه في أبو ظبي. وعلي الشرفا أيضًا، وعشرات من المسئولين في دولة الإمارات. حدثني رئيس تحرير مجلة أسبوعية في أبو ظبي، أنه عاش فترة من صباه وشبابه في قطر، وأنه كان يعمل «بوي» في شركة النفط. و«بوي» تعني «فراش» بالعربي الفصيح. وقال لي مدير بنك في دولة الإمارات: إنه عندما اشتد الجدب والجفاف في ساحل عمان، هاجرت الأسرة في زورق شراعي من الخليج إلى قطر. ولكن الرياح كانت عاصفة، والبحر كان أكثر هياجًا. فانقلب الزورق وأشرفت العائلة على الهلاك. ولكنهم

تمكنوا من النجاة بمعجزة بعدما فقدوا واحدة من بنات الأسرة. وفي النهاية استطاعوا الوصول إلى قطر حيث عمل رب الأسرة في البنك، وعمل أبناؤه في مهن شتى. استطاعوا مواصلة الحياة حتى عادوا مرة أخرى إلى الإمارات. ولكن الحال كانت قد تغيرت والدنيا كانت قد تبدلت. (رفع سماعة التليفون خلال الحديث ليبلغ عميلا له في لندن بموافقته على صفقة بعشرين مليون درهم).

وفي خلال زيارتي الأولى لقطر، اجتمعت مع الأمير السابق لمدة نصف ساعة، لم نتبادل فيها كلمة واحدة. ولكني تناولت خلالها الشاي مرتين والقهوة مرة واحدة، وشممت البخور في نهاية «الحديث». كان منطويا على نفسه، ومرتابا في كل الناس، وكان يقضي في قطر شهرين طوال العام، وفي القنص شهرين، وفي الاستجمام من عناء القنص شهرين، وباقي شهور السنة يقضيها في قصره على شاطئ الخليج في دبي.

وقد حضرت مباراة كرة قدم حدد موعدها في الرابعة بعد الظهر. ولكنها لم تبدأ إلا في السادسة، بسبب عدم وصول الأمير الذي أقيمت المباراة تحت رعايته. وعندما وصل الأمير وعزفت الموسيقى السلام الأميري، لم أتمالك نفسي من الضحك! فقد كان الأمير طفلا في الخامسة من عمره. وقف يصفق ويصرخ أثناء عزف النشيد. وبالطبع دارت المباراة في الظلام، وانتهت بانتصار فريق قطر. مع أنه كان يلعب في قطر مع بطل أندية إفريقيا. ولكن في ذلك الزمان، لم يكن أحد يستطيع أن يلعب في قطر ويفوز. ولو كان الفريق الزائر مكونا من أحد عشر «بيليه». وعندما عاتبت الحكم الذي أدار المباراة لسوء تحكيمه ولجهله بقواعد اللعبة، رمقني

بنظرة ذات مغزى، وقال لي في حكمة غريبة: «لسنا هنا في كأس العالم. المهم أن تنتهي المباراة في سلام، وأن نجلب السعادة إلى قلوب الحاضرين».

ولكن موقفا عظيما يذكر لقطر، وهو ندرة العنصر الأجنبي على أراضيها ووفرة العنصر العربي. وهي ليست مسألة عشوائية، ولكنها جاءت نتيجة تخطيط سليم، وربما نظرة قومية من أعلى. وبالرغم من أنها لا تزيد في المساحة والسكان على بنها في مصر، أو حمص في الشام، أو الحلة في العراق، إلا أنك ستجد فيها محطة إذاعة ولا محطة «صوت أمريكا» وتليفزيون ملون. ومدينة رياضية وحفنة صحف ومجلات. ومصنعًا للحديد والصلب.

* * *

سألت جاري في الطائرة ـ وهو إنجليزي من لندن ـ عن المسافة بين قطر والبحرين. فأجابني بأن المسافة بينهما هي نصف قرن بالتمام والكمال! والذي قاله الرجل الإنجليزي الخبير هو الواقع. ففي البحرين حضارة وتاريخ ومجتمع، وفيها حكومة قوية عفية كحكومة قطر. ولكن فيها أيضًا حركة ثورية، أحيانًا فوق الأرض، ودائمًا تحت الأرض. وصوت الناس له زئير في البحرين. أحيانًا يشتد كزئير أسد جائع في غابات كاتنجا، وأحيانًا يلين كزئير أسد أفلام مترو. ولكنك ستستمع إلى الزئير في كل مرة تطأ فيها قدماك أرض البحرين. وناس البحرين أذكياء، وهم أشطر تجار الوطن العربي، وأعلم أهل الخليج. ومنهم الفنانون والممثلون والراقصات.

وأشهر مطرب في الخليج بحريني اسمه محمد زويد. استمعت إليه في جلسة خاصة، وأشفقت عليه. فقد كان يغني بقطرات الدم المتبقية في عروقه، وبخفقات قلبه الذي أصابه الوهن بفعل السنين الطويلة. فقد كان الرجل يزحف نحو الثمانين، وقد شرب ليلتها حتى ثمل، وجلس على الأرض وراح يدندن على العود، ويحاول أن يستخرج صوتا من داخل تلافيف تجاويف صدره، يهتز وهو يغني كعصفور أصابه البلل، ويرتعش كقطة تلد في زمهرير الشتاء. ولكن صوت محمد زويد، بالرغم من كل شيء كان قويا ودافئا وصادقا. وقد سرحت مع صوته إلى سحيق الماضي، وطويت القرون القهقرى إلى صدر الإسلام. إلى شعاب مكة وجنات المدينة، وإلى معبد وابن سريج، وكان محمد زويد يغني الكلمات نفسها التي غناها كل منهما في أرض الحجاز، كلمات الشاعر الشقي عمر بن أبي ربيعة، والألحان، لعلها هي نفسها، والجو هو نفسه.

وما الفرق بين العوالي في البحرين والحفائر في مكة؟ وما الفرق بين المنامة في البحرين ومرج ابن سعد في المدينة؟ وما الفرق بين معبد والزويد؟ ثم ما الفرق بين جمهور المستمعين في المدينة زمان وبيننا نحن الذين اجتمعنا تلك الليلة نستمع إلى محمد زويد في البحرين؟ لعل الفرق الوحيد هنا، أننا كنا ليلتها مجموعة عرب نحمل أكثر من جنسية. «أبو فيصل» من الكويت و«الدرويش» من قطر، و«فخرو» من البحرين، وآخر لا أعرف اسمه من اليمن، وأنا من مصر. وكنا مهزومين. فقد كانت حرب الأيام الستة تلملم أذيالها. وكان بعضنا يحاول أن ينسى. وبعضنا يحاول أن يشمت. ولكن الهزيمة كانت تطحننا جميعًا، والعار يرفرف على رءوسنا كلنا، والخزي هو طابع الجميع.

ما أبعد الفارق بيننا وبين سميعة زمان.. في الزمان، وفي واقع الحال. كانوا ـ عكسنا ـ يحتفلون بالنصر، وكانت جيوشهم تزرع أعلامها في أرض الروم والفرس، وكانت لهم دولة واحدة وجواز سفر واحد، وكان موتاهم شهداء، وأحياؤهم سادة. وكانت لياليهم ليالي الملاح والأفراح، بينما ليالينا هي الهستيريا والعصبية والارتداد إلى داخل النفس ولعق الجراح. وتبدلت الأمور والأحوال ويا ولداه، وتقطعت الأوصال والصلات. ولم يبق فينا من السلف الصالح إلا كلمات ابن أبي ربيعة. وهي ظاهرة صحية على أية حال، ثم هي ظاهرة فريدة ليس لها مثيل في أي مكان. فليس هناك شعب يغني أغنية عمرها ألف وأربعمائة عام إلا شعب العرب. حضارة متصلة تضرب جذورها في بطن التاريخ إلى غور بعيد، كشجرة الجميز الطيبة التي تضرب جذورها الأرض إلى عمق عميق. وا أسفاه! الجذور طيبة، والأفرع سامقة، ولكن الأوراق ذابلة، والثمار بعضها فاسد، وبعضها أصابه العطب والعطن.

ولكن ها هي البحرين، على أي حال، تحاول أن تصل الحاضر بالماضي وهي بالفعل تعيش في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل! وها نحن ومعنا سيدات والميني جيب فوق الركبة، وأحيانًا فوق الرقبة. والاختلاط مباح. والمرأة لها في البحرين وجود، والناس بالإنجليزية ترطن وبالفرنسية تتلاعب، والتجار شطار، ولكن بشرف.

وإذا كنت محظوظا لأني التقيت بالصديق صالح شهاب في البحرين. وصالح هو وكيل وزارة الإعلام في الكويت، ولكنه في البحرين أشهر من سبع كوبري قصر النيل في القاهرة. ولو يرشح

صالح نفسه في البحرين لصار نائبا عن عموم الأمة. والسبب أنه درس أيام الشباب في البحرين. ولذلك فهو معروف على مستوى الحكومة، وعلى مستوى السوق، وعلى مستوى المتسولين الذين يحيطون بالمساجد.

ومن خلال أبو فيصل، دخلت البحرين المخملية، ورأيت البحرين المرتاحة، وعشت مع البحرين الممتلئة الثرية. ولكن بحرين النوادي والثورة والطلبة، وأنا رأيتها بنفسي، ودخلتها بمعرفتي. وقد بهرني ما رأيت وهزني ما شاهدت. شباب كالورد يحلم ببحرين عربية، وببحرين قوية، وببحرين مركز إشعاع، تؤثر في شبه الجزيرة ولا تتأثر، وتصوغ مستقبل المنطقة وتلعب فيها دور الضمير والفؤاد.

والحق أقول: إن الفرصة كانت مواتية والظروف كانت مناسبة. والبحرين الصغيرة كانت تموج بالأفكار والآراء، وتضطرب بالحياة والأحياء، وكان فيها أكثر من رأي، وأكثر من صوت، بينما كل شيء حولها كان مجرد صحراء تمتد عشرات الألوف من الأميال كعملاق فارقته الروح. وفي المواجهة تقف إيران تتربص وتتلمظ.

البحرين الصغيرة كانت واحة شبه الجزيرة، و«باريس صحراء العرب»، ومرفأ بحر الظلمات الذي ليس له شواطئ.

* * *

ولكن البحرين اللي عرفتها لم تستمر، حاصرتها مشاكل المنطقة وتغلبت عليها في النهاية وفرضت عليها قوانينها! ومأساة البحرين تحتاج إلى شاعر عظيم كالمتنبي يخلدها على طول الزمان،

وتحتاج إلى أكثر من مطرب يشدو بها في السهرات، ويسرح بها في الأسواق. وقد يسأل سائل: وما هي مأساة البحرين؟ وهل حدث لها مكروه لا قدر الله؟ والجواب كما سبق وأن قلت: إن البحرين كانت واحة شبه الجزيرة، وكانت حديقة الخليج، وكانت بمثابة الرئة التي تتنفس منها صحراء العرب المحرقة. وكان عشمنا في الله كبيرا، أن تتسع دائرة الضوء التي تشع من البحرين لتشمل الخليج كله. ولكن الذي حدث كان عكس ما توقعناه، وأصبح النظام في البحرين جزءا من النظام في الخليج، وإن كانت لا تزال تتميز بأن العنصر الأجنبي فيها نادر للغاية، وبأن الأمن فيها أحكم من الأمن عند جيرانها، كما أن الجسر الذي ربطها بالسعودية جعلها في مأمن إلى الأبد من أطماع الجالس على عرش فارس، سواء كان يدعى الشاه أو يتلقب بالإمام. ومع ذلك أرجو أن تعود البحرين إلى سالف عهدها القديم، حيث كانت ممرا ومقرا للأفكار الحرة وللفن العظيم.

وإذا كان الحديث عن البحرين، فلا بد أن نذكر بالخير حاكم البحرين. وأطيب الحكام العرب الذين عرفتهم والذين لم أعرفهم، وإن كان أفقرهم. ولكن ما أشد غناه في السماحة واللطف وحرارة الاستقبال. ولا بد أن نذكر أيضًا كوكبة الشباب المثقف الذي يشترك في توجيه دفة السفينة التي تقف الآن في مواجهة أطماع إيران، وترفع راية العروبة في وجه التحديات والمؤامرات.

وهتفت وأنا أغادر البحرين في آخر زيارة لها: «يا رب احفظ بإرادتك القاهرة أرض البحرين الطاهرة».

والداخل مفقود

ومن البحرين عبرت أنا الخليج، وعبرت السعودية، وعبرت البحر الأحمر، وحططت الرحال في السودان. وإذا كان شعب البحرين يسيل رقة، فالرقة نفسها هي شعب السودان. فأنت في الخرطوم مثلًا تستطيع أن تنام مفتوح الأبواب، ولن يجرؤ أحد أن يمس طعامك أو متاعك.

والحزب الشيوعي السوداني مثلا يصرخ بالحناجر طوال النهار ضد حزب الأمة، وحزب الأمة يشهر الخناجر طوال النهار ضد الحزب الشيوعي، والحزب الوطني يستنكر أعمال الطرفين. ولكن الجميع سيجتمعون في الليل حول مائدة العشاء، وسيشربون جميعًا من نهر الويسكي الذي يجري تحت الأقدام. ولما أبديت إعجابي بهذه الظاهرة، همس أحدهم في أذني.. هذه هي الطريقة السودانية. فالخصام لا يتحول في السودان إلى كراهية، والخلاف لا يتحول إلى حقد، والنقاش لا يتحول إلى شجار، والشجار لا يتحول إلى معركة، والكل أصدقاء وأحبة.

والرجل في السودان اسمه «زول» والمرأة اسمها «حبوبة»، وكل

شيء في السودان فسيح وعريض وممتد: الأرض الزراعية بلا حدود، والغابات تسد عين الشمس، والأنهار تجري بإذن ربي، وبينها قنوات وروافد، والخير على قفا من يشيل، والسعي على المهل، والرزق مضمون عند السماء الصافية، والدنيا حظوظ.. ومزاجات!

هكذا كانت الأحوال عندما هبطت السودان أول مرة. وشعرت منذ أول لحظة أني رأيت هذا المكان من قبل. ولقد حدث لي في السودان حادث لم يحدث لي مثله من قبل، ولم يحدث لي بعد ذلك قط. جلست على رصيف في أم درمان مع مجموعة من الأصدقاء، كان بينهم «سبت دودو» حارس مرمى السودان الشهير وأعظم حراس المرمى في إفريقيا يومًا ما، و«سبت دودو» معناها بالعربي أسد يوم السبت. وقد امتدت السهرة بنا وطالت، وكنا قد أكلنا فولا وبصلا وكسرة وشرموت. وفجأة استأذنت، وبعد أن صافحت الجميع، انصرفت مسرعا لا ألوي على شيء ولم يسألني أحد منهم إلى أين أنت ذاهب؟ فقد كان من المفروض أن أسهر معهم إلى أي وقت، فإذا رغبت في العودة إلى الـ«جراند أوتيل»، ذهبت في سيارة أحدهم. المهم أنني استأذنت فجأة، وانصرفت على عجل، ووقفت على بعد عشرة أمتار منهم بجوار ما تصورت أنه محطة أتوبيس. لماذا؟ لأنني ألغيت تمامًا مسألة وجودي بالسودان وتصورت نفسي على رصيف في حي عابدين! وما دامت الساعة قد أصبحت الثانية صباحا، فلا بد من عودتي إلى الجيزة قبل أن تتوقف وسائل المواصلات. ولكني عدت إلى رشدي بعد دقائق، واكتشفت أنني على بعد آلاف الكيلو مترات من القاهرة، وأن الرصيف الذي كنت أجلس عليه منذ خمس دقائق، هو في أم درمان وليس في عابدين!

وعندما عدت أدراجي إلى شلة الأصدقاء السودانيين انفجروا ضاحكين، فقد اكتشفوا ما حدث للعبد الله من تداخل في الزمان والمكان.

إلى هذا الحد أنسى نفسي في السودان؟! نعم. وأنا مثلًا وقفت عند المجرن، حيث يلتقي النيل الأزرق والنيل الأبيض ليخرج من عناقهما الخالد نهر النيل العظيم، يتدفق مخضوضرا معشوشبا نحو الشمال. أنا وقفت هناك ذات أصيل، وإذا بي أشم رائحة الأرض في المنوفية. عند الشجرة، أنا تصورت نفسي عند القناطر الخيرية! أنا في قرية الكدرو تصورت نفسي في قرية بهناي في المنوفية، أو في قرية العزيزية بالجيزة، أو في ميت يعيش في الدقهلية! الجو هو نفسه، والطين نفسه والرائحة نفسها. وكل شيء هناك له مثيل هنا، حتى الشجر والحجر والبني آدمين!

يا ميت حلاوة على السوداني الأصيل، إذا سكر فهو الشراب ذاته، وإذا ضحك فهو الفرحة نفسها، وإذا بادلك الصفاء والود، فلا صفاء ولا ود بعد ذلك. ولكن احذر السوداني إذا غضب، وهو لا يغضب إلا للشديد القوي. وكما أن في كل جماعة الطيب والخبيث، والصالح والطالح، إلا أنني عندما أصادف سودانيا خبيثا، أبدو كمن صعقه تيار، وكأنه من المفروض ألا يوجد سوداني خبيث، وكأنه من البديهي أن كل أبناء السودان من الصحابة، ومن أولياء الله الصالحين!

وربما لهذا السبب، وأيضًا لأن كل السودانيين طيبون، فأنا أتصورهم جميعًا لهم نفس الملامح، فالطيب صالح يشبه علي

شمو، يشبه الدكتور عقيل، يشبه فاروق أبو عيسى، يشبه الدكتور عبد الحميد عبد الرحمن، يشبه الدكتور محجوب، يشبه خالد عباس، يشبه الدكتور عبد الحميد صالح.. فكلهم رجل واحد، ولأنه سوداني إذن فهو طيب. وهو إنسان بالرغم من اختلاف المذاهب والمناهج والطريق.

ولكن للحقيقة عرفت سودانيا اسمه «أبو آدم»، وهو مثقف من إياهم. ويومًا كان من أهل اليسار عندما كانت أعلام اليسار مرفوعة وأمواجه عالية، ولكنه خلع جلده فجأة، وانضم إلى يسار آخر، وإن كان يسلك عكس اليسار القديم. ولم تكن حركة الانتقال نتيجة دراسة ومقارنة واقتناع، ولكن لأن اليسار الجديد الذي انضم إليه كانت فلوسه كثيرة وشيكاته حاضرة. ولا أستطيع أن أقول بأن «أبو آدم» هذا هو أخبث سوداني، ولكني أستطيع القول بأنه أخبث بني آدم. وأغرب شيء أنه عض اليد التي امتدت له خلال محنته في الجيزة، وتنكر للناس الطيبين الذين احتضنوه أيام تشرده.

وعندما أبديت للصديق علي شمو دهشتي من وجود سوداني من هذا النوع، أجابني الصديق علي شمو مبتسما: هكذا السوداني، إما نموذج من السماء، وإما نموذج من الحضيض. ولأن الذين في الحضيض قلة، لذلك ستجدهم في حضيض الحضيض. ولأن الحياء هو ميزة السوداني، فإذا زال الحياء عن السوداني فقل عنه ما تريد.

وأنا لا أسوق مثال «أبو آدم» هذا لمجرد التفكه، ولكن لأن «أبو آدم» بتاع الجيزة سيجرنا إلى شيء أخطر، إلى «أبو آدم» آخر كان يحكم السودان منذ وقت قريب. وفي عهد «أبو آدم» النميري، تحول

السودان إلى ساحة ومعارك، وتحولت الخصومة السياسية إلى حروب قبلية، وأصبحت كل أيام السودان من أيام داحس والغبراء. والسبب أن «أبو آدم» النميري استطاع أن يغير من طبيعة السودان. فلأول مرة في السودان يتعلق المخالفون في الرأي على المشانق، وتجرى كل عدة أسابيع مذبحة في الشارع، ويطلق النار على المعارضين دون محاكمة. إنها أشياء جديدة على السودان، وهي من أفضال «أبو آدم» النميري، الذي تختلف طبيعته كثيرًا عن طبيعة شعبه، والذي جاءت به الأقدار التعيسة على رأس السودان، وعلى يديه تحول البلد الآمن المطمئن إلى عش زنابير، وبفضله تحول النيل الأبيض إلى النيل الأسود، وتحول النيل الأزرق إلى أزرق نيلة.

* * *

ومن كان يتصور أن الشعب السوداني سينتفض مرة كل عدة أشهر، وأحيانًا كل عدة سنوات ليقدم الشهداء تلو الشهداء، ولكي يزيح عن صدره كابوس الظلم والظلام. لعلي أستطيع أن أزعم بأني كنت أتصور ما حدث لمعرفتي بشعب السودان. والذي يريد أن يعرف شعب السودان على حقيقته، عليه أن يدرس على الطبيعة نيل السودان الأبيض ونيله الأزرق. فكلا النهرين ينحدران من الجنوب إلى الشمال، ويلتقيان عند أم درمان، ليتعانقا معا، وليكملا المشوار في نيل واحد لا هو أزرق ولا هو أبيض، ولكنه نيل فقط.. والسلام.

ولكن ما أبعد الفارق بين النيلين! النيل الأبيض طيب هادئ فسيح ما بين الشاطئين ضحل المجرى، وحيواناته ضخمة مثله، طيبة مثله: أفراس بحر، فيلة، وقطعان هائلة من الغزلان والزرافات تشرب على

الشاطئين: ويخيل لمن يقف على شاطئ النيل الأبيض أنه نيل ميت، والسبب أن سطحه هامد وخامد، فلا موجة ولا دوامة ولا حتى سمكة تتلعبط، لأن السمك الذي تحت الماء سمك أهبل وطيب وعبيط وضخم الجثة. والسمكة الرشيقة في النيل الأبيض تزن مائة كيلو، وبعضها يصل وزنه إلى ثلاثة أطنان، واسمها «العجلة»، وهي أحيانًا ضعف حجم البقرة، ويبيعونها بالكيلو على شاطئ النيل!

وبالعكس تمامًا تستطيع أن تصف النيل الأزرق؛ فهو نيل هادر ثائر عميق الغور، ضيق المجرى، متوحش وعنيف، تستطيع أن تسمع صوته من مسافة بعيدة، وهو ينحدر بعنف من فوق جبال الحبشة، دافعا أمامه أطنانا هائلة من الحجارة والصخور والطمي، وفي أعماقه تتصارع وحوش بحرية هائلة، وتماسيح عملاقة تخطف حتى الفيلة التي تدنو من الشاطئ، وأسماك متوحشة لها حراب ولا حراب مقاتل زنجي من مدينة واو. وفي النهر دوامات تبتلع من يقترب منها، وأمواج تلطم الشاطئ بشدة، وتيارات تسحب من يقف في وجهها، وأعشاب سامة ينشق عنها قاع النهر تقتل من يأكلها أو يلمسها.

ومن صفات النيل الأزرق وصفات النيل الأبيض، استمد السوداني صفاته، فهو طيب هادئ كالنيل الأبيض، وهو أيضًا هادر ثائر متوحش كما النيل الأزرق، وهو لا ينام عن ثأره، ولو نامت كل الأحياء، وهو لا ينسى الإساءة، وإن كان يبدو للسذج أنه حليم إلى ما لا نهاية. ولا أحد يستطيع أن يحكم السوداني بالقوة أو يفرض عليه نظاما بقوة السلاح.

ولقد أخطأ النميري حين تصور أنه قادر على أن يحكم شعبا رغم أنفه، وهو من أجل أن يبقى في السلطة، جعل في كل بيت قتيلًا، وجعل بينه وبين كل سوداني ثأرًا. ولأن الخطأ كان فادحا، فالثمن كان أفدح. وعندما سقط النميري من فوق عرشه الذي أقامه على تل من جماجم الشهداء، كان السودان نفسه قد تغير. لم يعد السودان بعد النميري هو نفسه السودان قبل النميري، والفرق بينهما هو ذات الفرق بين هيروشيما قبل القنبلة الذرية وهيروشيما بعدها.

وإذا كان هذا هو السودان السياسة، فالسودان الناس ما أحلاه. والسوداني كالمصري سيصبح صديقا بعد أول كأس، وسيصبح أصدق الأصدقاء بعد الكأس الثالثة، وقد يموت من أجلك بعد أن تفرغ الزجاجة. وإذا أحبك السوداني فكل شيء فيك جميل، حتى النهار الذي وصلت فيه هو أجمل الأيام، والمناسبة التي جئت من أجلها هي أحلى مناسبة.

والمرأة السودانية إذا أحبتك ستمنحك كل شيء؛ وهي رقيقة وعذبة وحبابة ومغرقة في الرومانسية، ومتأثرة بعض الشيء بروايات الحب في السينما، وبعضهن يمثل في الحياة أدوارا سبق لهن مشاهدتها على الشاشة. حتى المرأة السودانية المبذولة للراغبين في حي الامتداد تختلف عن أي امرأة مثلها على ظهر الأرض، فالونسة هي الشيء الأهم، والمناقشة تأتي في المرتبة الأولى، وقبل كل شيء. وقد يزدرد الزبون عشر زجاجات بيرة قبل اللقاء والعناق، فلا شيء يدعو إلى العجلة.

والبنت السودانية العادية تقطر خفرا وحياء، وهي تتعثر حين

تمشي، وتتكسر حين تميل، وتصاب برصاصة إذا صوبت نظرتها إليك، وليس أجمل من هذا العصير العربي الإفريقي، ولا أمتع من هذا المزيج السامي الزنجي الذي أنتجه عرب قحطان وزنوج الدنكا، وكانت نتيجته هذا الجمال «العربيقي»، أو هذا الجمال «الزنجعربي» إذا صح التعبير!

ولعل هذا يفسر لماذا تزوج كل أفراد الجيش المصري الذين خدموا في السودان أو بعضهم من بنات الجنوب، وبعضهم أقام هناك فلم يبرح مكانه، ولم يعد إلى شمال الوادي. تعرفت هناك على مصري عجوز يفتح دكان بقالة في الخرطوم. كان قد ذهب جنديا في جيش مصر وتزوج هنا وأنجب أولادا، وعاش في التبات والنبات، فلما انتهت خدمته آثر البقاء في الخرطوم، واشتغل بالتجارة، وازدهرت أعماله، ولكنه في الخامسة والخمسين أصبح وحيدا، فقد ماتت زوجته، وتفرق عنه أولاده، وعندئذ قرر العودة إلى مسقط الرأس. وعندما التقيت به في الخرطوم، كان قد تجاوز السبعين ولكنه لم ينفذ حلم العودة قط، بالرغم من أنه كان يذهب كل عام إلى محطة السكة الحديد ويقطع تذكرة العودة ويذهب إلى السوق فيشتري كل ما يحتاجه من أغراض، ويعد الحقائب ويجلس في انتظار يوم السفر، إلا أن يوم السفر هذا لم يأت قط، كأنما في الأرض خيوطا تجذب الرجل فلا يستطيع فكاكا، أو كأن قدميه انغرستا في طين السودان فلا يستطيع الحركة. لقد كان قدره أن يبقى هناك حتى آخر أيام العمر. ولم تكن هذه قصة «عم سليمان» وحده، ولكنها قصة ألف سليمان على الأقل، كلهم تمنوا العودة وكلهم هموا بها، ولكنها لم تتحق لأحد منهم قط.

وإذا كان هذا هو السودان العربي الشمالي، سماحة من غير تفريط، ومحبة بكرامة، وصبر ولكن بدون يأس، فإن السودان الإفريقي الجنوبي شيء آخر. وإذا تصورت جنة الله فهي ستكون حتما على غرار واو أو جوبا، حيث الغابات الفسيحة تجري من تحتها الأنهار، وحيث فاكهة الجريب فروت تداس بالأقدام، وحيث كل شيء، وأي شيء بازغ وآفل، وأي شيء آكل ومأكول.

أك سوري إكواني

وكل بلاد العرب «كُومْ»، وجنوب السودان «كُومْ» آخر. إنه غابة العرب الوحيدة «معذرة لأني لم أزر الصومال» وهو جنة الله في الأرض. وشعب الجنوب طيب وغلبان وعلى الفطرة، وهو لم يزل على حاله كما خلقة الله، ولولا مؤامرات الاستعمار على جنوب السودان لكان لدينا الآن غابة بتتكلم عربي، مع الاعتذار للفنان الأرزقي سيد مكاوي.

ولكن الخواجة الذي كان يحكم ويتكلم، وضع ستارا حديديا حول الجنوب، فلا أحد يدخل إلا بإذنه، ولا أحد يخرج إلا بإرادته. الأبواب مفتوحة للمبشرين ومغلوقة في وجه الوعاظ، الكنائس مباحة والمساجد ممنوعة، واللغة الإنجليزية متداولة واللغة العربية مطاردة، كأنها بعض لغات الشيطان. ولو كان الخواجة أصلح في الجنوب، لو أنه نشر التعليم، لو أنه أقام نظاما للحماية الصحية، إذن لغفرنا له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. ولكن كل شيء باق على حاله: المرض يفتك بالسكان، والجوع يفري البطون، والجهل يعمي

البصيرة والإبصار. أرادوا الجنوب غابة للصيد ومضطجعا للراحة والاستجمام!

أغرب شيء رأيته في الجنوب تمثال للسيدة العذراء والسيد المسيح، والملامح زنجية واللون أسود، يريدون إيهام أبناء إفريقيا أن المسيح كان من أبناء القارة السوداء. ولقد وقفت أمام التمثال أتأمل وأتذكر قول شاعر إفريقي من غانا: «عندما جاء المستعمرون كان معهم الإنجيل ومعنا الأرض، وبعد وقت قصير أخذوا منا الأرض وأعطونا الإنجيل!».

رأيت في مدينة واو شابا عاريا تمامًا من الجنوب، ولكنه يرتدي قبعة فوق رأسه، ويدخن البايب، ويرطن بكلمات إنجليزية، لعله لا يفهم معناها! رأيت آخر يستند إلى جذع شجرة ضخمة ويغني أغنية أمريكية ذائعة الصيت «هابي بيرث داي»! وفي أحد شوارع جوبا استلفت نظري عدد من الشباب يرقص عاريا تمامًا، وفي الطريق العام، وعلى أنغام موسيقى راقصة تنبعث من جهاز راديو رقصة الـ«هاي لايف» وكانت هذه الرقصة هي الشيء الوحيد الذي تركه المستعمرون خلفهم في الجنوب. ولكن بالرغم من كل ما فعله الاستعمار في الجنوب، فقد اكتشفت تعاطفا شديدا لدى الجنوبيين مع عرب الشمال.

وأبكاني ذات مغربية ولد جنوبي يغني داخل الغابة في مدينة جوبا لحنا غاية في الأسى والشجن. كان الجو ساحرا والشمس انحدرت وراء الغابة، وفي السماء قطع سحاب ضالة، ونسمة هواء منعشة، ورائحة فواكه طازجة تحلق في الجو، وكان الولد الزنجي يغني

بصوت أشبه بصوت عبد الحليم حافظ مخلوطا بصوت مطرب الخليج محمد زويد معجونا بصوت عمنا القديم الشيخ يوسف المنيلاوي، وكانت كلماته هي عصير مأساته.. خليط من العربية والإنجليزية والرطانة. «المندكورو» هم أبناء الشمال، ولا أدري في أي لغة تكون. و«ماتوا» معروفة بالطبع. و«سمبلة» أصلها إنجليزي ومعناها ببساطة و.. آك سوري إكواني! «آك» ومعناها آخ، حرف ندب ولطم. وتستطيع أن تجد أصلها وفصلها في قاموس أختنا الخنساء التي قضت العمر كله تندب أخاها صخرا. و«سوري» هي سوري بالإنجليزية، بمعنى آسف. و«إكواني» هي إخواني بالعربي. والولد الجنوبي يعلن أسفه وأساه على إخوانه «المندكورو» من أبناء الشمال الذين ماتوا ببساطة، أو ماتوا أونطة، أو ماتوا بلا سبب. وهو يعض بنان الماضي، ويقضم أظافر الأمس، على هؤلاء الإخوة الذين ماتوا بلا ذنب، ودفعوا حياتهم بلا سبب..

وهذه الأغنية كانت منتشرة في الجنوب عقب الحرب الأهلية التي نشبت بين الشمال والجنوب في عهد الفريق عبود. ولقد أريقت دماء كثيرة في الغابة، وضاع المئات من زهرة شباب السودان من شماله وجنوبه، وانتهت الحرب بإطاحة نظام عبود. وبقي الشمال في حاله والجنوب على حاله، ولم تحل الحرب مشكلة واحدة من مشكلات السودان آك سوري إكواني.

ولو كانت لدى أبناء قحطان وعدنان خطة، لو كان لديهم برنامج، لو لدى الأثرياء منهم بُعد نظر وعاطفة قومية حقيقية، فإن جنوب السودان يمكن أن يتحول إلى جنة العالم خلال عشر سنوات. إنه يمكن أن يصبح حديقة العرب جميعًا، وحقل العرب

عموما، وعماد مصانع العرب في كل مكان. وهناك أعظم أخشاب العالم، وألذ فواكه في الأرض وأغنى مراعي الدنيا، وأغلى جلود عرفها البشر. وهناك الأناناس في حجم كرة القدم، ولكنه يترك على الأرض حتى يتحول إلى هباء. وهناك الصمغ يهمل حتى يجف على الشجر. وهناك حيوانات من كل صنف وعلى كل لون، عظامها تصلح أسلحة، وجلودها تصلح أحذية، ودهنها يصلح كترياق.

ولكن يبدو أن السادة العرب في واد آخر عن أراضيهم وعن خيرهم. ولماذا المشقة وكل شيء حاضر في مخازن «هارولدز»، وكل شيء موجود عند مخزن «لافايت»، وكل شيء معروض في شارع «أكسفورد». وأخشى أن نبكي على الجنوب يومًا ما لو ضاع من أيدينا، كما نبكي اليوم على الأندلس. فالجنوب ليس أقل أهمية من الأندلس، إن لم يكن أخطر، فهو بوابة إفريقيا، وحدوده مفتوحة على الحبشة وزائير وإفريقيا الوسطى، وهي مفتوحة لأن الغابة ليس لها بوابة، فكل شيء سايح ومتجول وعابر سبيل. فهكذا طبيعة الغابة، لا شيء يحدها ولا شيء يتحكم فيها. ولكن للغابة حديث آخر. نرجو الواحد الستار أن يبقينا وإياكم حتى نهتك لكم هذه الأسرار.

* * *

والغابة أحوال وأهوال ومصائب سودة، ورزايا ونوايب، والداخل فيها مفقود والخارج منها مولود، أو هي هكذا على الأقل في نظر الذين لا يعرفون الغابة. ولكنها في نظر الآخرين الذين يعرفون الغابة شيء آخر، جزء من الحياة، يجري فيها ما يجري في شارع «الشانزليزيه» في باريس أو شارع «ريجنت» في لندن. صحيح

أن كل شيء فيها آكل ومأكول، ولكن من قال إن هذه ليست صفة المدن الكبيرة؟ الأسد آكل الذئب، والذئب آكل الثعلب، والثعلب آكل القنفذ، والقنفذ آكل الثعبان، والثعبان آكل الطير، والطير آكل الجميع عندما يتحول الجميع إلى جثة مطروحة في العراء!

والأسد هو ملك الغابة.. خرافة. صحيح هو ملك الغابة بمرسوم أصدره الإنسان، ولكن هذا المرسوم سيظل حبرا على ورق، لأن حيوانات الغابة لم تسمح به قط.. وأعجب العجايب أن ملك الغابة هو الحيوان آكل الأعشاب: الفيل والجاموس ووحيد القرن. هؤلاء جبابرة الغابة، وهم أبطال الوزن الثقيل فيها، ولهم من الجميع المهابة والتقدير والاحترام. ووحيد القرن هو أقوى الجميع وأغباها، وهو مثل ليستون، مصرعه في غبائه. وتأتي الجاموسة بعده في القوة والغباء. ويحتل الفيل في الغابة مكانة محمد علي كلاي في الملاكمة، القوة والذكاء. ولذلك سيبقى متربعا على عرش الغابة وإلى آخر الزمان. والأسد المهاب أبو الزئير إذا التقى بالفيل في الغابة، تنحى عن الطريق وضرب للفيل تعظيم سلام.

والأسد هو أكسل حيوان في الغابة، وهو في أسرة الأسود لا عمل له إلا النوم والتثاؤب، أما القنص والعراك وحماية الأسرة وتدبير غذائها فمن واجبات اللبؤة، وهي إذا هبرت فريسة أعطت الأشبال أولا، وما تبقى فللزوج النائم الوخمان، وتبقى هي الرمز الأبدي للفداء، أول من يصطاد وآخر من يأكل. وإذا أكل الأسد فهو آخر نوم وأحلى أحلام. وتستطيع أن تمر به وأنت آمن، وأن تلعب له بأصابعك في فروة رأسه أو تزغزه في بطنه، فهو لن يتحرك ولن يتململ، وهو لن يصير خطرا إلا إذا جاع.

وفي قانون الغابة، أنك إذا أردت أن تصطاد أسدا، سمحوا لك بالدخول وحدك مافيش مانع، مع آخرين زي بعضه، لأن أي مخلوق يحمل بندقية في استطاعته أن يعود من الغابة وعلى كتفه جثة أبو السباع. أما إذا أردت أن تصطاد فيلا، فهناك سيضعون لك ألف شرط. لأنه آه وألف آه إذا انطلقت الرصاصة نحو الفيل ولم تصب منه مقتلا، عندئذ نهار الصياد أزرق، وليل الغابة كحلي، وستقوم القيامة على الجميع ولن تقعد أبدا. وليس في الوجود أخطر من فيل يسيل منه الدم، سيتحول هذا الوديع إلى بركان تقذف منه الحمم تحرق ما حوله، فقد يخرج من الغابة ليهاجم القرى والمدن أيضًا، وسيحتاج الأمر عندئذ إلى كتيبة من الجيش لوقفه عند حده. لذلك فإدارة الغابة تشترط عليك أن تصطحب معك عشرة رجال مدربين على صيد الفيل وبأسلحة حديثة. وكاذب من يدعي أنه اصطاد فيلا في الغابة. صحيح أنه أطلق النار، ولكن الرصاصة القاتلة حتما سيطلقها هؤلاء المدربون العشرة، ولكنهم يتركون للصياد أن يعود إلى المدينة حاملا على كتفه سن الفيل. وماذا يهم، ما دام يدفع الصياد تكاليف الرحلة وأجر الحراس، ويقدم الطعام والشراب أيضًا.

ولذلك ستبقى هواية صيد الفيلة وقفا على السادة أصحاب الملايين، لأن صيد فيل واحد قد يكلف إقامة شهر داخل الغابة عدة ألوف من الجنيهات ولكن الفيل إذا لم تعترضه لا يعترضك، وهو ذوق ومؤدب ودمث للغاية. وهو إذا شعر بدنو الأجل سار مئات الأميال داخل الغابة ليعود إلى مسقط رأسه، لأنه ينبغي أن يلقى حتفه هناك. ولحمه يأكله سكان الغابة، ويقسمون لك أنه ألذ من

لحم الجاموس، ولكن ألذ لحم في الواقع وأغلى لحم أيضًا هو لحم القرود.

والصيادون إذا اصطادوا القرود، أرسلوا الشباب منها إلى حدائق الحيوانات، والعجائز باعوها للقرداتية يسرحون بها على المقاهي والحانات، أما النسانيس الصغار فهي تذبح وتعلق في محل جزار، وهي أغلى اللحوم سعرا في إفريقيا. وليس في الغابة إلا المشاحنات والمشاجرات والافتراس. ولكن أخطر عراك هو الذي يدور بين الفيل ووحيد القرن، إنه صراع الجبابرة، وهي معركة ليس فيها غالب ولا مغلوب، وفي الأغلب ينتصر الفيل، ولكنه حتما يموت بعد المعركة بأيام وأحيانًا بساعات.

ولكن المباراة الحقيقية هي بين الوحش والإنسان، وهي مباراة عامرة بالإثارة، غنية بالفن، والنصر فيها غالبا للإنسان، لأن العقل أقوى من العضلات، والذكاء فوق الأظافر والأنياب، وأي وحش في الغابة يفر هاربا إذا رأى شبح الإنسان. لا يهجم على الإنسان إلا من ذاق لحم البشر. ويقال ـ والعهدة على الآكل ـ : إن إلذ لحم في الوجود هو لحم الإنسان، والسبب أنك لا تستطيع أن تذوق اللحم، أي لحم بدون ملح، ولكن لحم البني آدم لا يحتاج إلى ملح. إن ملحه منه فيه، على رأى الممثل سعيد صالح عبيط الفن العظيم.

ولذلك إذا تذوق الوحش لحم البني آدم. صار من آكلي لحوم البشر، وهو عندئذ سيعزف عن أكل لحوم الحيوانات، ويبقى كل همه أن يظفر بواحد من بني آدم يفطر به ويحمد الله، وسيبقى بعد ذلك غريبًا عن أهل الغابة، وهو سيهجر الغابة بعد ذلك ويعيش

على أطرافها، وستصبح القرى الآهلة بالسكان هي مجال عطه بعد ذلك، ولكن الحيوان لن يكتب له أن يعيش طويلا، فسيلقى حتفه بيد الإنسان الذي عشقه كثيرًا، وتمنى لو يغرس أسنانه في لحمه ليل نهار.

وهناك خطر انقراض وحيد القرن والجاموس الوحشي: هنود حمر الغابة كل غابة وفي كل مكان. وإذا كان الجاموس موجودا بكثرة في كل الغابات، فإن وحيد القرن لا وجود له الآن إلا في غابات السودان، السبب هو الغباء. وأنت إذا هربت من وجه جاموسة وصعدت فوق شجرة، فإنها ستربض لك تحت الشجرة، لا تأكل ولا تشرب ولا تنام، وستموت الجاموسة حتما، بينما يكون الذي فوق الشجرة قد هبط منها خلسة واختفى في زحام الغابة عن الأنظار، أما وحيد القرن، إذا وقع في كمين داخل الغابة، فإنه لا يسعى إلى تخليص نفسه، لكنه سينتحر على الفور، وسيتكفل النمل الأبيض بلحمه، وتبقى عظامه مادة رئيسية لصنع السلاح.

حكايات الغابة ما أعجبها وما أغربها. حكايات تقشعر منها الأبدان وسبحان مدبر الأكوان.

على أبواب بابل!

أنا وقفت على باب العراق سبع سنوات أستجدي الدخول دون جدوى. كان نوري السعيد يحكم العراق ويتحكم فيه، حتى خيل إليَّ أنني لن أدخل العراق في حياتي. وقبل الوحدة بين مصر وسوريا، كان العبد لله في دمشق، وكانت دمشق وقتئذ قلب العروبة النابض، والتقيت هناك بعدد من السياسيين والعراقيين، أذكر منهم عزيز شريف والدكتور صفاء وعبد القادر إسماعيل وآخرين، وقد حملوني رسالة إلى عبد الناصر. ولما كنت محررا في جريدة الجمهورية وأنور السادات رئيسا للتحرير، فقد سلمتها إلى السادات ليسلمها إلى عبد الناصر. وبعد أسبوع من تسليم الرسالة فصلوني من الجريدة. وبعد أسبوع آخر جرجروني إلى سجن الواحات. ويعلم الله أني لم أكن أعلم محتويات الرسالة، ولم أقرأ حرفا مما فيها على الإطلاق، ولكن اكتشفت بعد سنتين من السجن أن الرسالة كانت تحمل إنذارا إلى عبد الناصر، بأنه إذا أقدم على حل الحزب الشيوعي في سوريا بعد الوحدة فإن الأحزاب

الشيوعية العربية ستكافح في المستقبل، ولكن في طريق آخر غير طريق الوحدة والقومية.

وأغلب الظن أن الحزب الشيوعي العراقي اعتقد حسب مفاهيمه عن «الانـزواء الارتـوازي والالتحام الشنكبوري» أنني مندوب عبد الناصر في دمشق. وأغلب الظن أيضًا أن عبد الناصر بعدما قرأ الرسالة، اعتقد حسب تقارير الأجهزة أنني مندوب الحزب الشيوعي في العراق. وهكذا ضاع العبد لله بين سوء فهم الحزب الشيوعي العراقي وسوء تصرف أجهزة مصر. ويشهد الله أيضًا أن عمنا أكرم الحوراني كان الوحيد الذي اهتم بأمر العبد لله، فسأل وزير داخلية مصر عن المصير الذي انتهيت إليه، وبعده عشرة أيام ـ هكذا حكى لي عمنا أكرم الحوراني ـ أنكر وزير الداخلية وقتئذ أن السجون المصرية تضم محمود السعدني أو واحدًا بهذا الاسم.

وهكذا فإن الحزب الشيوعي العراقي مدين لي بعامين كاملين قضيتهما في سجن الواحات الخارجة. وأقول أيضًا إنني في غاية السرور لأن الوزير عامر عبد الله ذكرني بالدين، وهو الذي ذكرني في بغداد أخيرًا. وأنا أقول: المسامح كريم، وما يصيب الريش بقشيش! المهم يا سادة يا كرام أنني حاولت بعد خروجي من السجن أن أذهب إلى بغداد، ولكني لم أستطع الحصول على تأشيرة الخروج من القاهرة، ولذلك صرفت النظر نهائيًا، وقلت: لعلها حكمة أن أقضي العمر كله ولا أرى بغداد، ولكن شاءت الظروف أن يسقط نظام عبد الكريم قاسم، وأن أجد نفسي فجأة في شوارع بغداد.

والحق أقـول: إن بغداد كانت بالنسبة لي كحلم. عاصمة

إمبراطورية العرب الثانية بعد دمشق، مقر أبو جعفر المنصور وهارون الرشيد، وعاصمة السحابة التي تمطر حيث تشاء، فسيأتي إليها خراجها.. أعظم عبارة قيلت عن إمبراطورية في كل الأزمان.

هنا في بغداد عاش أبو نواس، يدعي الانحلال ويجهر بالدنايا لينجو من قبضة السلطة ويحظى بعطف السلطان. وهنا عاش المتنبي، وأصيب بعقدة حياته حين حاول شراء عدد من البطيخ بدينار، ويحمله المتنبي على كتفه، ورفض البائع وباع البطيخ لآخر بنصف دينار، ويحمله البائع على كتفه. ووقف المتنبي يتأمل البائع وقد خيل إليه أن فيه مسًّا من الجنون، ولكن البائع شرح الأمر للمتنبي وقال له مستهزئًا: «هذا رجل يملك مائة ألف دينار». حكمة، أما الغنى فيعطى ويزاد، وأما المتنبي فيؤخذ منه! ولعل هذه الحادثة كانت السبب في أن المتنبي حرص العمر كله بعد ذلك على أن يكون من أغنياء العصر، ولعله مدح الجميع حتى لا يرفض بائع بطيخ آخر أن يبيعه بدينار ما سمح لغيره بأن يشتريه بنصف هذا المبلغ.

ولكن يا ميت حسرة على بغداد كما رأيتها بعيني رأسي في عام ١٩٦٥. شوارع تشكو من قلة الزفت، وأسواق تشكو من قلة التنظيم، وظلام وخمول ومدينة فيها من الخرائب أكثر مما فيها من منازل. وتعجبت كيف صرخ المأمون حين رأى مصر وقال متعجبًا: «لعنة الله على فرعون! طغى فقال: أليس لي ملك مصر؟»، إذن ماذا يقول لو رأى ملك بغداد؟! لا بد أن بغداد كانت على زمن المأمون غيرها في عام ١٩٦٥.

وأغلب الظن أن بغداد دمرها المغول ثم العثمانيون ثم الحكم «الوطني السعيدي» نسبة إلى نوري السعيد. حتى الطرب خلا منه بلد إسحق الموصلي وابنه إبراهيم. كان القبناجي قد اعتزل ونرجس شوقي هاجرت. ومات عندليب العراق ناظم الغزالي، طيب الله ثراه. حتى الشعر أصيب بالسكتة في بلد المتنبي وعلي الجهم، هاجر عمنا الجواهري واختفى بلند الحيدري، وانزوى عدنان الراوي يحتضر، وغاب عبد الوهاب البياتي وعلي الحلي وشفيق الكمالي عن الميدان. أين العراق إذن؟! البلد الذي كان يسكنه أربعون مليون نسمة في زمن العباسيين، وكان حقل الحنطة لإمبراطورية العرب. ومن الذي ارتكب الجريمة؟ فأفرغ العراق من سكانه وأفرغه من خيراته، ويوشك أن يترك أنفاسه ولا يتركه إلا ميتًا بلا حراك. إنه العهد الملكي السعيدي، الذي اعتبر التمر مصدرًا أساسيًا للرزق، واعتمد العمالة اتجاهًا استراتيجيًا في السياسة، وكرس الإعدام عقوبة لكل وطني أو شيوعي أو بعثي، يرفع علم العروبة، ويطالب بأن تكون بغداد قبلة للعروبة وليست مقرًا أو ممرًا للأحلاف. ولما اطلعت على بغداد في ذلك الزمان وما فيها من غرائب وأضداد، هتفت: «يا رب احمني من أصدقائي، أما أعدائي فأنا كفيل بهم».

والحق أقول: إن معالم بغداد التي انطبعت في نفسي عام ١٩٦٤ وعام ١٩٦٥ هي التي جعلتني لحظة خروجي من مصر عام ١٩٧٤ لا أذهب إلى بغداد، يممت غربًا نحو لندن، وعشت في لندن تسعة أشهر متواصلة أتسكع في شوارعها، وأرتاد نواديها، وأقضي أغلب النهار في مستشفياتها. فقد كانت حبيبة قلبي «هالة» طريحة الفراش، لم تنته من إجراء العملية الجراحية بعد. ولأول مرة حقًا في حياتي

أشعر بالضياع. اشتاقت نفسي إلى روائح بلادنا، واشتاقت أذناي إلى سماع الشيخ رفعت والشيخ عبد الباسط عبد الصمد، وبكيت بالدمع لأني لم أجد في لندن رصيفًا واحدًا يتسع لمقعدين، واحد لِيَّ وواحد للعبد الفقير زكريا الحجاوي! نجلس وندردش ونسخر من أنفسنا ومن الناس. ولذلك قررت أن أهجر لندن. فاتجهت إلى بيروت، ومن بيروت إلى الدوحة حيث كان عمنا زكريا الحجاوي يعيش هناك. وقد داخ السبع دوخات قبل أن يتوكل على الله ويموت. ومن الدوحة إلى أبوظبي والكويت. رحلة عذاب متصلة مشيناها على الشوك أحيانًا، وعلى السيف أحيانًا، وعلى أبواب الله في كل حين!

وأتاحت لنا الرحلة العجيبة اختبار أمة العرب على الطبيعة، وخرجنا باكتشاف مهم، وهو أنه لا عرب هناك ولا يحزنون وإنما نحن عرب في الإذاعة وأعداء في الواقع، وأننا عرب باللسان وقلوبنا شتى، وأن أي إنجليزي أو أي أمريكي أو أي هندي أو أي إيراني، له في بلاد العرب السلام والضيافة، وللعربي المهانة والمذلة والحظ التعيس!

ومن أجل سلاطة قلمنا وجارح كلماتنا، طردنا من بلد عربي باللطافة، ومن آخر بالتهديد، ومن ثالث بالعنف! وهكذا وجدت نفسي أخيرًا في بغداد. وبعد عام من إقامتي في بغداد، سألني عربي من إياهم وكان يجلس معي في فندق دار السلام عن الفرق بين بغداد وعواصم عربية أخرى؟ فقلت للأخ العربي إياه المتبلطن بالفرو، والمتدفئ بأوراق النقد: «بالنسبة إليَّ شيء واحد في بغداد أفضل منه في أي مكان آخر، وهو أنني في بغداد أعيش وأشعر وأعامل

كمواطن عراقي»، وكانت هذه حقيقة لا تقبل الجدل. فأنا على طول ما لفيت، وعلى طول ما نطيت، لم أشعر منذ غادرت مصر، وفي أي بلد عشت فيه وسكنت، أنني مواطن، إلا في بغداد.

ولم تكن المعاملة مقصورة على العبد لله باعتباري من المشتغلين بالكتابة والسياسة، أو لأنني كنت شهيرًا في بلادي يومًا ما. ولكن هذه هي المعاملة التي يلقاها كل عربي في بغداد. مرحبًا بالجميع ما داموا عربًا. لهم ما للعراقيين من حقوق، وعليهم ما على العراقيين من واجبات. شهادة حق على أن الشعار المرفوع «وطن واحد» ليس للتجارة وليس للاستهلاك المحلي أو العربي، ولكنه شعار وجد للتطبيق، وأنه إيمان لدى كل فرد في الحزب الحاكم، من أحمد حسن البكر إلى آخر عضو في الخلية الحزبية في الأهواز. ويكفي أن تكون عربيًا حقًا لكي تجد مكانًا لك في بغداد. الجواسيس فقط والخونة هم الممنوعون من الإقامة. ولذلك ستجد الجميع هناك في أول تجربة من نوعها في الوطن العربي: الشيوعي والبعثي والناصري والليبرالي والوطني الذي يقاتل ضد المصالح الأجنبية والاستعمار. ولو نجحت التجربة ـ وأعتقد أنها ستنجح ـ ستمهد الطريق لصياغة علمانية جديدة في الوطن العربي «التجربة فشلت للأسف الشديد».

وإذا كانت هذه هي بغداد السياسة، فبغداد الشارع آخر حلاوة وآخر جمال. والعراقي العادي طيب، فيه من المصري ثقته الشديدة في كل من يلقاه، وهدم الحواجز بينه وبين كل من يلقاه من الناس. وإذا كان المصري على استعداد للموت في سبيل صديقه الذي لم يتعرف عليه إلا منذ بضع ساعات، فإن العراقي يمكن أن يدخل

معركة الهول من أجلك، خصوصًا إذا كنت عربيًّا وغريبًا في بغداد. وإذا كان العراك مع ليبي في ليبيا، سينتهي بموت الغريب، فالعراك في العراق مع عراقي، سينتهي بموت العراقي. لأن العراقيين الذين سيوجدون لحظة العراك، سيقفون لا محالة إلى جانب الغريب. وإذا عشت في العراق فستنسى بلادك وستنسى أصدقاءك، لأن كل العراق سيصير بلدك وكل العراقيين سيصبحون أصدقاءك. عندما سكنت داري أول يوم في «المنصور»، انهالت علينا الأطعمة من البيوت المجاورة، لأنه هكذا يعامل الساكن الجديد في العراق.

والعراقي العادي بسيط للغاية، يضحك من الأعماق، ويبكي من الأعماق، ويسيل رقة، ويهتز غضبًا. لذلك أحذرك من العراقي إذا غضب. ولا يغضب العراقي إلا لكرامته، وما عداها فكل شيء يهون. وإذا كنت قد حرصت على أن أكرر كلمة العراقي «العادي»، فأنا أقصدها، لأن هناك عراقيًّا آخر هو صنف الموظفين في دوائر الحكومة القديمة، في الجمارك والجوازات والتربية والتعليم. هناك حيث اللوائح التي وضعها السلطان عبد الحميد والنصوص التي وضعت لإرضاء السلطان رشاد، ستجد صنفًا آخر من العراقيين، ولذلك إذا أردت أن ترى وجه العراق المشرق، فلا تذهب إلى الجمارك، لأنك ستدوخ دوخة الأرملة، وستبكي بكاء الخنساء، وستذهب قصتك في الأجيال ولا قصة النبي أيوب! ولما اطلعت على سلوك رجال الجمارك، هتفت: «يا رب يا حفيظ، نجنا من هذا السلوك المغيظ!».

والحق أقول إن الهيكل الوظيفي ورثته ثورة العراق من عهود سابقة. ولأن البشر لا يتغيرون بسهولة ولا بالسرعة المنشودة،

فأغلب الظن أن الأمل سيكون في الأجيال الجديدة. وأنا أقول الآن بعدما عشت في العراق عامين: إن العراق سيتحول تحولًا جذريًّا إلى الأفضل والأرفع لو ساد فيه هذا الاستقرار الذي يشهده الآن، وهذا لم يحدث في تاريخه الحديث من قبل. نعم، تحتاج بغداد إلى عشرين عامًا على الأقل لكي تصبح شيئًا مختلفًا عما كانت عليه من قبل. شيء باهر وجميل. لأنه في السنوات العشر الأخيرة تحولت بغداد مثلًا إلى حديقة كبيرة. وتستطيع أن تقيم الآن في بغداد وأنت آمن حتى ولو كانت أبواب دارك مفتوحة.

وأقول أيضًا وأنا أمسك الخشب: إن مشكلة المشاكل في العالم ـ التضخم ـ لم تدق أبواب العراق بعد. صحيح السيولة متوافرة وموجودة، ولكن البضائع أيضًا متوافرة وموجودة. ولعل العراق هو البلد العربي الوحيد بعد ليبيا في رخص الأسعار. وتستطيع لو كنت في بغداد، وإذا كنت أعمى مثل حالي، أن تصنع نظارة طبية في محلات القطاع العام بثلاثة دنانير، وثمنها في لندن مائة جنيه بالتمام والكمال. وكيلو التفاح بعشرين قرشًا، وكيلو الخيار في الصيف بدرهم، وكيلو اللحم بدينار. ولكن الذي يحتاج إلى وقفة طويلة هو عملية الاستهلاك. إذا نزلت أي كمية من التفاح إلى الأسواق، اختفت في ظرف ساعة، وإذا عرضت محلات «أروزدي باك» أي شيء، اختفى هذا الشيء تمامًا في ساعة. وهناك موضة جديدة في بغداد اسمها «المجمدة»، وأنت لا تملك مجمدة، فأنت لست عراقيًّا، مع أنها بلاد زراعية، والأشياء متوافرة فيها على مدار السنة، وكل شيء حاضر وموجود وممكن زراعته حتى في الحدائق. والعراقي يشتري دون رغبة في الشراء. ويشتري لأن الفلوس حاضرة والشيء موجود.

ومائدة العراقي دسمة، وهو أيضًا كريم، وستجد عليها كل أنواع الطيور واللحوم والأسماك، ولكن عدوي الوحيد في العراق هو «الكبة». والكبة هي الطعام الوطني في العراق. والعبد لله وإن كان عراقيًا بالمزاج، إلا أني لست عراقيًّا بالمعدة. وأجمل شيء في بغداد هو المطاعم الصغيرة المنتشرة على عربات اليد في شوارع المدينة، وأجمل منها زبائنها الذين يترددون عليها كل يوم. وستجد من بينهم شعراء وأدباء وفنانين، لهم في دنيا الفن صيت، ورجال أعمال ورجال طريق، ولا أحد منهم يستنكف الوقوف على الرصيف ليتناول طعام العشاء. عندما نزلت بغداد أول مرة، قادني عبد الرحمن الخميسي إلى مطعم صغير في «الكرادة»، وهتفت وأنا ألتهم الطعام كالغول: «يا مرحبا بغداد»، ولكن علي بلوط قادني في مرة أخرى إلى مطعم آخر وجعلني أبكي على العمر الذي انقضى قبل أن أمضي إلى هذا اللحام. أغرب شيء أن الولد الذي يشوي اللحم قال لي ذات مرة: لقد عرفت الرجل الذي كان معك. إنه علي بلوط رئيس تحرير «الدستور». لقد رأيت صورته في إحدى المجلات، ولم أكن أعرف أنه هو الشخص الذي اعتاد أن يأتي إلى هنا كلما جاء لزيارة بغداد. ومرة أخرى ضحك الولد وهو يقف خلف النار، وقال وهو يغمز بعينه: أنت محمود السعدني. أنا رأيت صورتك وقرأت لك في «ألف باء».

وهذه الحادثة تقودنا إلى ظاهرة عجيبة في بغداد، وهي أن العراقيين مدمنون على القراءة، وهم على معرفة بكل إنتاج الأدب العربي، حتى هؤلاء الذين نستخف أحيانًا بشأنهم، أو نقلل من قيمة إنتاجهم. والعراقي أيضًا قارئ حساس جدًا وغضوب جدًا. فقد

انهالت على العبد لله مرة عشرات الخطابات تعاتبني كلها على عبارة «العالم العربي» التي وردت لي في مجلة «ألف باء»: كيف تقول «العالم العربي» إذا كنت بالفعل تؤمن بالوحدة؟ إن «العالم العربي» عبارة مبهمة كعبارة «العالم الغربي». وعندما تقول عبارة «العالم الغربي» فهي تشمل شعوبًا مختلفة وأممًا شتى، ولكن قد يجمع بينهم رباط واحد، وهم أنهم جميعًا من العالم الغربي، ولكن العرب شيء آخر مختلف. وبلاد العرب اسمها «الوطن العربي»، لأنها بالفعل بلد واحد مزقه أعداء العرب لأمر في نفس يعقوب. وبعض الناس العاديين في العراق يحتفظون بكل أعداد صباح الخير» في الخمسينيات والستينيات، وبعضهم يحتفظ بأعداد «روز اليوسف» منذ أن ظهرت. والعجائز منهم يذكرون بالخير عمنا الدكتور زكي مبارك، الذي عاش فترة طويلة في بغداد وتعلق قلبه بليلى المريضة بالعراق. والحق أقول إنه كان للدكتور زكي مبارك فضل على أبناء جيلي، لأنه عرفنا بالعراق، وجعلنا نعيش فترة صبانا المبكر في أجواء بلد علاء الدين والسندباد.

وإذا كنت تريد حقًّا معرفة العراق والغوص في أعماقه، فاذهب إلى «الشواكة» و«علاوي الحلة» و«الشيخ معروف». إنك هناك ستكتشف العراق الحقيقي، وستتعرف على أعمق أعماق العراق. ولست أدري لماذا تذكرني تلك الأماكن بمصر أيام زمان. مصر الحلوة الطيبة السخية، ومصر القديمة قبل أن يمسخ وجهها أبطال الانفتاح، ويشوه روحها قرود الطبقة الجديدة. وستجد في الشواكة وعلاوي الحلة نماذج من أبناء البلد الطيبين، واحد منهم تعرف عليّ، وكان يعرف بطبيعته الأصيلة أنني هارب ولاجئ من مافيا

الانفتاح. وأقسم الرجل ألف يمين ألا أبرح مكاني قبل أن نأكل معًا عيشًا وملحًا. وكانت أكلته «مسجوف» أكلناها على رصيف الشارع في الشواكة.

ولكن ماذا عن ليلى المريضة في العراق؟ وماذا جرى لها بعد عمنا الدكتور زكي مبارك؟ هل ما زالت مريضة؟ أم أنها نهضت من فراش المرض بالسلامة وأصبحت آخر صحة وآخر جمال؟ أنا شخصيًّا لما اطلعت على أحوالها هتفت: «يا عالم الواردة والشاردة، احفظها من كل عين باردة»!

أوطان الآخرين!

وإذا كنت قد عشت في العراق ست سنوات، فالحق أقول: إن هذه السنوات الست قد حفرت في نفسي علامات، وتركت في نفسي ندوبًا. وبالرغم من ذلك. فأنا مدين بالفضل لبغداد. فقد علَّمَت أولادي، وتخرجوا في جامعاتها، ووفرت لأسرتي الاستقرار الذي كانت تنشده، وأيضًا عرفتني بغداد بشخصيات عربية لم تتح لي الظروف من قبل أن أتعرف عليها. وعلى رأس هؤلاء عمنا أمين الحافظ رئيس سوريا الأسبق، الذي دافع عن بيته عندما هاجمته قوات الانقلاب، بشكل أفضل مما دافع به البعض عن هضبة الجولان. وصديق آخر تعرفت عليه هو أخونا الدكتور عارف الكيالي، وهو عربي سوري ونموذج من الرجال أتمنى أن أرى مثله صورة العربي في كل مكان.

أما عبد الفتاح الزلط، الذي تعرفت عليه يومًا ما في حلب، وكنا وقتئذ في عنفوان الشباب، وكنا نحلم معًا بوطن عربي واحد وجيش عربي واحد، ومجتمع عربي واحد يضج بالحرية والنضال والحياة. أخونا المناضل عبد الفتاح الزلط الذي التقيت به أخيرًا في بغداد،

أنكرني وأنكرته. لقد تغير كما تغيرت، وترك الزمان بصماته على وجه كل منا، وترك أثره على شعره فصار في لون القطن، ولم يترك على شعري أثرًا، لأنه لم يجد على فروة رأسي أي شعر! شيء واحد فقط جمعنا واتفقنا عليه، وهو الازدراء الكامل لما صارت عليه الحال في الوطن العربي، والتشاؤم بالنسبة للمستقبل، والبكاء على أيام مضت كنا نبكي فيها على ما نظن أنه اعوجاج، فصار انحرافًا، تلك الأيام غاية الاستقامة بالنسبة لما يحدث الآن في عواصم العرب الكبرى. ضاقت بنا السبل، وضاقت بنا الحيل ولم يعد أحد يدري من أين؟ أو إلى أين؟

أما رجال السياسة في العراق، فقد جعلني بعضهم أشعر بأن العالم جميل والدنيا بخير. نعيم حداد عضو مجلس قيادة الثورة، وشجرة الجميز الطيبة التي أظلتني في لحظات الهجير القاسية. ومنيف الرزاز الذي كان أقرب المسئولين إلى نفسي وعقلي. وشفيق الكمالي رئيس اتحاد الأدباء، الذي ترجع صداقتي به إلى أيام قهوة محمد عبد الله بميدان الجيزة، والذي كان كالبلسم لجراحي، التي أحدثها في جسمي وفي نفسي عشرات من الأرزقية الذين يشتغلون بالسياسة في بغداد. والشاعر حميد سعيد ابن «ريف الحلة» صاحب النفس الصافية والضمير الحي، والذي كان ملاذي في اللحظات التي أشرفت فيها على قتل نفسي. ونصيف عواد السياسي الفذ صاحب الأفق الواسع والنظرة المستقبلية، العروبي الحقيقي، الذي يؤمن إيمانًا لا يتزعزع بأن بعث أمة العرب لا يتحقق إلا بأن يكون كل عربي حرًا. والصحفي أمير الحلو، الذي كان أول وجه التقيت به في العراق، وكان نعم المدخل إلى بلد الرشيد والمأمون وأبي تمام.

والمقدم أرشد ياور صدام حسين، الرجل الذي كان أشبه بفارس من فرسان العرب في صدر الإسلام، آخر شهامة وكرم واستبسال.

وفي المقابل، كان هناك عشرات من الوحوش الكاسرة، تصوروا في لحظة جنون وغرور أن اللاجئين السياسيين هم أسرى وقعوا في أيديهم. وتصوروا في لحظة طيش أنهم قادرون على إخضاع الجميع بإغرائهم، وبمحاولة تقزيمهم. على رأس هؤلاء، رجل مسئول، حجمه وشكله لا يرشحانه إلا لمنصب صبي في قهوة أو دلال في سوق، كان وجهه يشبه إلى حد كبير وجه ممثل كوميدي عربي مشهور، وكان هذا الشبه هو عقدة حياته. وكان يتصور أنه فيلسوف هذه الأمة ومبعوث العناية الإلهية لبعث هذه الأمة من رقادها الطويل. والحقيقة أنه كان أجهل من دابة، وكان الفشل هو رفيق دربه على طول الخط. اشتغل صحفيًا فلم يحقق شيئًا. واشتغل كاتبًا يكتب مقالات من نوع «الحنجوري المتهالك في الشنجوري» فلم يقرأها أحد إلا أهل بيته، وبعض المنافقين من بطانته. واشتغل وزيرًا فجعل من وزارته أضحوكة للجميع. هذا المسخ المشوه تصور أنه قادر على تنصيب نفسه أستاذًا للمثقفين والكتاب المصريين الذين لجأوا إلى العراق! ولقد نجح في إخضاع البعض بفلوسه. وجن جنونه عندما قاومه البعض الآخر، فسلط زبانيته عليه، وانكشف من خلال سلوكه السلطوي، فإذا به لا يؤمن بشيء مما يردده، وإنما هو مجرد مستبد صغير، سيذهب في النهاية إلى زبالة التاريخ.

وغير هذا الدعيّ، كان هناك عشرات من الخنافس الصغيرة، تصوروا في لحظة جنون أن القومية هي أن يتولوا قيادة القوم. وتوهموا أن العروبة هي أن تركب في عربتهم. واعتقدوا أن

الاشتراكية هي أن تشترك معهم في كتابة التقارير. خنافس حقيرة وعناكب سامة لها أسماء: «جبار» و«الدهش» و«باصي» و«أبوسعد».. وآخرون. والمؤسف حقًّا أنه يوجد لهذه الخنافس شبيه في كل أجزاء الوطن العربي، فهناك جبار وباصي والدهش في دمشق وفي طرابلس الغرب وفي تونس وفي الجزائر وفي عدن، وحتى في القاهرة. والمؤسف أيضًا أن مصريين كثيرين مشوا في ركابهم، وركبوا في عربتهم، واشتركوا معهم في تحرير التقارير، وأصبحوا من مليونيرات العصر وسكنوا لندن وروما وباريس! على رأس هؤلاء زعيم حزب الكهرباء، الذي أسس لحساب هؤلاء حزبا كهربائيًا، ضم زوجته وخادمته ومهندسًا كهربائيًا في حجم التيس، وولد أرزقي خرج من مصر بلا سبب، ولم يكن مطلوبًا من السلطة ولا مطاردًا من البوليس.. خرج قاصدًا بلاد العرب لهدف واحد ووحيد، هو الحصول على الفلوس بأي طريقة ومن أي طريق، وانهمك في كتابة التقارير وتجنيد المصريين الذين يقصدون العراق من أجل لقمة العيش. وكان هؤلاء هم أعمدة الحزب.

وكانت مهمة حزب الكهرباء في الحقيقة، هي اصطياد الشباب المصري وتهيئته وإعداده وتسليمه لجبار، ثم بعد ذلك لا أحد يعلم ما الذي يجري لهم أو يجري عليهم. ولكن الأكيد أن هؤلاء الشباب ضاعوا جميعًا بسبب المسافة البعيدة بين الشعارات والتطبيق، وبين الحلم والحقيقة. وبينما ضاع هؤلاء الشبان الصغار، أصبح رئيس حزب الكهرباء مليونيرًا يشار إليه بالشيكات، وتحول الكهربائي وكيل الحزب إلى مليونير يشار إليه بالدولارات، أما الأرزقي إياه فقد هبر هبرته وعاد إلى مسقط رأسه، ويتصرف الآن كواحد من ملوك الانفتاح!

أيام مضت وأرجو ألا تعود، ليس بالنسبة للعبد لله فقط، ولكن بالنسبة إلى كل صاحب رأي، أو صاحب قضية، أو صاحب وجهة نظر. وإذا كنا قد فضحنا هؤلاء الخنافس وحفنة الأرزقية الذين خضعوا لهم مقابل أكياس الدنانير، فالأمانة تقتضينا أن نذكر بالخير الرجل العراقي الأول صدام حسين. والحق أقول إنه أنقذني من براثن هؤلاء، وحماني من بطشهم. ولقد حرضني مرة على أن أقاوم هؤلاء بعنف، وأن أقف أمامهم بقوة، وقال قولًا مأثورًا ما زلت أتذكره وسأظل أذكره حتى آخر يوم من أيام العمر. قال: «ما عليك يا محمود من هؤلاء، فهؤلاء الصغار موجودون في كل مكان على الأرض العربية، وعلينا أن نقاومهم في كل مكان، لكي نشق الطريق إلى المستقبل الذي نحلم به للأمة العربية».

والحق أقول: كان صدام ودودًا وعطوفًا، وكان يشعر بأنه مسئول عن كل من لجأ إلى العراق في ظله. ولكن.. كم من هؤلاء استطاعوا الوصول إليه؟ ولقد كان العبد لله حسن الحظ، لأنني استطعت اختراق دفاعات هذه الخنافس، واستطعت المرور من بين خنادقهم، وتمكنت في النهاية من الوصول إليه. وبالرغم من ذلك لم تتوقف الحرب. أصدر صدام ذات مرة أمره بإعداد مسكن لائق للعبد لله بعد أن قضيت خمسة أعوام أسكن في بيت شبه مهجور، وينام أفراد أسرتي على الأرض. ومع ذلك مرت خمسة أشهر ولم ينفذوا أمر الرجل. وعندما حملت متاعي وأوشكت على مغادرة العراق، نصحني أحد الإخوة العراقيين بألا أتسرع وأن أتصل بصدام أولًا. وتطوع الصديق العراقي وأبلغه بالأمر، وثار الرجل ثورة عارمة واستدعاني في اليوم التالي، وفي اليوم الثالث

كان كل شيء قد تم. ولم يقدر للعبد لله الحياة في البيت الجديد إلا شهرين. فقد اضطررت إلى ترك العراق هاربا مصطحبًا ابني الوحيد معي، تاركًا أسرتي وحدها في بغداد. والسبب أنهم بعد انتقالي إلى المنزل الجديد، تصوروا أنني انتصرت عليهم، فقرروا الانتقام. وبدأ الضغط يشتد، وعندما أحكموا الحصار، قررت أن أغادر العراق. وفاتحت الدكتور يحيى الجمل الذي كان في زيارة خاطفة لبغداد في الأمر، وأقرني على ذلك، ثم أبلغت الأستاذ محمد صبري مبدي أيضًا.

وعشت عشرة أشهر خارج العراق، متنقلًا بين لندن ودولة الإمارات. وكانت فترة من العذاب المتصل والأرق المستمر. فأنا في الإمارات وأسرتي في بغداد، ووطني بيني وبينه حواجز دونها حواجز، وأهوال دونها أهوال. وفي النهاية تدخلت السماء لتضع حدًا لآلامي وضياعي. وتولى حسني مبارك أمر مصر، وكان لا بد أن أعود. وعدت ولكن عن طريق بغداد. وكان لقائي مع صدام حسين قبل الرحيل هو مسك الختام. أما العناكب والخنافس، فقد دخلوا الشقوق بعد أن تأكدوا بأنني عائد إلى القاهرة.

وإذا كان لا بد من كلمة تقال لشباب اليوم، فكلمتي لكم: احذروا مغادرة الأوطان، وتجنبوا اللجوء إلى أوطان الآخرين مهما كانت الشعارات براقة والكلام معسولًا. لأنك يا ولدي لن تستطيع ولن يسمح لك بأن تلعب سياسة على أرض الآخرين. وإذا لعبت فسيكون لحسابهم ولمصلحتهم، ولن تكون أكثر من كاتب تقارير أو مخبر نشيط، أو في أفضل الأحوال عضوًا في حزب الكهرباء، تكتب التقارير وتجند الأفراد لحسابهم مقابل أكياس الدنانير!

وتسألني الآن يا ولدي: وما الحل؟ إذا تورط الإنسان في عمل سياسي داخل بلده، وفي غياب الديمقراطية، وفي ظل نظام يعتمد البطش والقمع والتقتيل؟ وجوابي هو كما قلت لك: تقدم إلى السجن في بلدك، أو تعلق بحبال المشنقة في مسقط رأسك. هذا أفضل وأشرف مما سوف تلاقيه في بلاد الآخرين. وآه من الضياع وخيبة الأمل في بلاد الآخرين!

العرب في إسبانيا

الزائر لمدريد القديمة ـ وكان اسمها مجريط ـ يشم في كل خطوة رائحة العرب تشيع في كل ركن هناك، والحقيقة أن ثمانية قرون للعرب في إسبانيا لم يكن من السهل استئصال جذورها، وهي جذور عميقة تضرب في نفسية الشعب الإسباني ومزاجه إلى غور بعيد.

وادي الحجارة

واللغة الإسبانية، وهي من أكثر لغات العالم انتشارًا، غنية بالكلمات العربية: الزيتون مثلًا اسمه «الزيتونت»، والسكر اسمه «الثكر»، والقاضي اسمه «الكدي»، وأعظم مسارح إسبانيا اسمه الكلندي «رون». واللغة اسمها «الكلا»، وأهم شارع في مدريد اسمه شارع «الكلا» والمعتقل الوحيد الذي يقذف إليه نظام فرانكو بأعدائه اسمه «جوادا اليخرا»، وكان اسمه أيام العرب وادي الحجارة. وحتى العاصمة العربية القديمة (طليطلة) اسمها الآن «توليدو». وسبحان مغير الأسماء! والجزيرة.. أهم مدينة في

الجنوب اسمها الآن «الخثيرث» ولا تزال إسبانيا حتى اليوم تكتب بالأرقام العربية. وهذه حكاية جديدة قد يجهلها بعض العرب.

أيها العربية

والحكاية التي أقصدها هي أن الأرقام التي نكتب بها ـ نحن المصريين ـ ليست عربية، وهي الحروف ١-٢-٣ إلخ.

أما الأرقام العربية الصحيحة فهي الأرقام الإنجليزية، وهي الحروف التي نطلق عليها خطأ «حروف أفرنجية». وهي في الحقيقة عربية اخترعها عرب شمال إفريقيا واستخدموها في إسبانيا.. ومن إسبانيا شاع استعمالها في أوربا كلها. ولا يزال عرب شمال إفريقيا يستعملونها إلى اليوم.

نهر التاخو

وكل زائر لإسبانيا يجعل على رأس زيارته.. زيارة «توليدو» عاصمة الخلافة العربية في عصرها الزاهر، وتقع توليدو في وادٍ بين أربعة جبال صخرية، ويلتف حولها نهر التاخو، وكان اسمه في عهد العرب نهر «التاج» والإسبان ينطقون الجيم خاء. وفي توليدو لا يزال قصر الخليفة قائمًا يتحدى الزمن، والجامع الكبير تحول إلى كنيسة ضخمة من كبرى كنائس إسبانيا. ولا أستطيع الآن أن أصف المشاعر التي جاشت في نفسي وأنا أقف في الصحن المشيد بالصخر على عواميد رخامية، وتزين السقوف نقوش عربية جميلة.. زالت معظم أجزائها، أزيلت عن عمد، وبقيت أجزاء ليتفرج عليها الزائرون والسياح. في هذا الصحن الواسع الرهيب

عقدت اجتماعات خطيرة، وأقيمت صلوات الحرب. يوم كانت توليدو مدينة شامخة كالجبل الأصم. ثم انقلبت توليدو إلى مسرح للدسائس والمؤامرات، وفريسة في يد خلفاء هدفهم النساء والخمر وهواياتهم الحكم. وانقلب المسجد معها أيضًا وأصبح مسرحًا للاجتماعات المريبة، ووكرًا لجواسيس القصر!

الأمثال والحِكَم

ويفصل بين المسجد والقصر شارع ضيق مرصوف بالحجارة، فلا زالت توليدو على حالها منذ كانت أيام الخلافة. ويفصل بين القصر والمسجد ممر أرضي وآخر مغلق كان الخليفة يجتازه كل يوم جمعة «ليتفرج الشعب عليه وعلى طلعته البهية» ولا تزال الفوانيس الضخمة التي وضعها الخليفة على باب قصره باقية في مكانها حتى اليوم، والدكك الخشبية التي كان يتربع عليها خدم القصر وحشمه متناثرة في كل مكان، والنقوش البديعة والزجاج الملون والآيات القرآنية والحكم والأمثال تزين الجدران والسقوف حتى اليوم.

أبو زيد الإسباني

والناس في توليدو عرب.. عرب السحنة، وفي اللون، وفي العادات أيضًا. أمام كل بيت دكة خشبية يجلس عليها أهل البيت في أمسيات الصيف الحارة، والبيوت من الداخل مفروشة بكنب عربي وشلت عربية وستائر عربية، عليها رسوم ساذجة تشبه رسوم أبو زيد الهلالي سلامة، وكل أهل توليدو يدخنون السجاير اللف (لف يد) ولا يشربون السجاير المكنة.. عادة أخرى اكتسبوها من العرب!

خالد وبكر

والرياضة المفضلة في توليدو.. ركوب الخيل ومصارعة الثيران، والخيول الإسباني من سلالة عربية أصيلة، بل هي من أجود أنواع الخيول الموجودة في العالم اليوم، وأشهر الخيول عندهم تحمل أسماء عربية.. يزيد.. بكر.. حارث.. خالد.. إلخ.

القلعة الشهيرة

وقلعة توليدو الشهيرة دمرت بعض جوانبها في الحرب الأهلية، ثم رممت حكومة فرانكو ما دمر منها. وللقلعة تاريخ مشهور في الحرب الأهلية يعرفه كل إسباني، كان جيش فرانكو يحتمي بداخلها، وقوات الاشتراكيين تحاصرها من كل جانب، وعرضوا ـ الاشتراكيين ـ أن يستسلم ما دامت نتيجة القتال معروفة، ولكنه رفض، ونشبت المعركة، وأبيدت القوات التي كانت تتبع جيش فرانكو، وتهدمت القلعة العربية الشهيرة. وعندما انتصر فرانكو بعد ذلك ودخل توليدو، ذبح جنوده خمسة آلاف جندي اشتراكي وجدوهم ساعة الغزو داخل القلعة!

أكل النساء..

وتاريخ العرب في توليدو من وجهة نظر إسبانية مدون على جميع أماكن الآثار بالفرشاة، رسوم لا حصر لها تمثل السلطان وهو يسكر.. وهو يأكل، وهو يحتضن بين ذراعيه غانيته، والسياف إلى جواره يحرس أخرى وهي تنشج بالبكاء!

الوحش

حدث وأنا في مدريد أن جلست أكثر من ساعة أستمع إلى فتاة مثقفة قرأت تولوستوي وتشيكوف وروسو وفولتير وموباسان، جلست إليها وهي تحكي سر بغضها للإفريقي: إنه وحش.. إنه قذر.. إنه كريه.. لو رأيت إفريقيًّا أمامي لأغمي عليَّ..

وسألتها: ليه؟

ـ لأنه إفريقي وبس.

ـ ولكن من أين جاءتك هذه الفكرة؟

ـ ربما من تاريخ العرب هنا.. ربما من أفلام هوليوود..

ـ ولكن.. هل رأيتِ إفريقيًّا في حياتكِ؟

ـ لا.

ـ تستطيعين رؤيته الآن.. فأنا إفريقي!

ثلاثة

وليست توليدو وحدها هي الثورة العربية في إسبانيا.. هناك الأندلس وإشبيلية وقرطبة. وفي الأندلس بالذات يوجد أبناء العرب الذين أذعنوا للحكم الإسباني، ثم هجروا دينهم بعد ذلك ثم أصبحوا إسبانًا، وهم سُمر الوجوه جدًا مثل المصريين في الصعيد الأعلى، وقصص غرامهم تشبه قصة عنتر وعبلة، حتى الغزل بينهم يتم على الطريقة العربية. هي في الشرفة وهو يستعرض أمامها على ظهر

الحصان. وأجمل مَثَل سمعته في الأندلس.. مثل عربي يقول: ثلاثة لا يمكن على ظهر الجمل إخفاؤهم: العطر.. الدخان.. الرجل!

أبناء العرب

وفي طول البلاد الإسبانية وعرضها ينتشر الغجر، وهم طبقة تختلف عن غيرها من الطبقات. ويؤكدون في إسبانيا أن الغجر جميعًا من سلالة العرب، وأنهم فروا إلى الجبال بعد المجزرة، ثم عادوا بعد أن استتب الأمر، عادوا ليجدوا أن كل شيء انتزع منهم وضاع.. ففضلوا التشرد وعشق الفن!

مهنة المستقبل

ولا تزال مهنة كشف الأسرار ومعرفة المستقبل عن طريق النجوم وأوراق الكوتشينة وضرب الرمل منتشرة ولها سوق رائجة في إسبانيا. وفي إسبانيا تذهب كل فتاة لم ترزق بابن الحلال مرة واحدة في الأسبوع إلى الكنيسة ومرتين إلى العرافة تسألها كشف الغيب ومعرفة ما يخبئه لها من مفاجآت. وهي مهنة شاعت وذاعت في نهاية الحكم العربي. حتى إنه كان في قصر الخليفة منجم رسمي يعرف مواعيد الحصاد.. ولحظة نشوب الحرب!

أول معهد

والموسيقى الإسبانية هي امتداد للموسيقى العربية القديمة، وحتى غناؤهم الحديث ممطوط وفيه رغي كثير تمامًا مثل الأغنيات

العربية القديمة التي كانت تحكي لوعة الحب ويأسه. وأول معهد للموسيقى في العالم أنشأه العرب في إسبانيا، ولا يزال المبنى قائمًا مكانه إلى اليوم، وعلى بابه رسوم لآلات موسيقية قديمة كان العرب يدندنون عليها ويبثونها غرامهم وشكاواهم!

النار.. والحديد.. والعنف

وأهم تمثال داخل متحف كنيسة توليدو التي كانت مسجدًا، تمثال لقائد إسباني قديم اشترك في طرد العرب وقتل منهم الآلاف، تمثال أنيق جدًا، وعلى قاعدته نقشت عبارة عربية.. بالنار نحارب النار، وبالحديد نضرب الحديد، والعنف سبيل النصر، كلمة مأثورة نطق بها هذا القائد منذ عهد بعيد وطبقها في حربه ضد العرب. ثم مضت ستة قرون كاملة وجاء فرانكو فاعتنق الكلمة المأثورة.. وجعلها شعارًا في الحرب الأهلية.. فانتصر!

ولكن.. هل انتصر فرانكو؟

يبدو أن انتصاره كان على غرار انتصار القائد القديم الذي نطق بالكلمة المأثورة!

فقد أباد كل منهما بالعنف أعداءه، ولكن بقيت الأفكار التي حاربها كل منهما حية مشرقة!

دراويش إسبانيا

حفاة وعراة وجوعى ومرضى ومدمنون لكافة السموم، ويعيشون في أوربا ويسمونهم الغجر.. ويختلفون في المصدر الذي نقلهم إلى الحياة، وأنت تستطيع أن تعيش مع الغجر وأن تسمر معهم وتأكل

وترقص وتغني. لو ركبت سيارة سارت بك عشر دقائق فقط من قلب مدريد، من بلاسادي إسبانيا مثلًا.

زيف وبهتان

وهؤلاء الغجر كانوا يهيمون منذ قرون في براري إسبانيا وجبالها، لا عمل لهم ولا مأوى، ولا قيم يتعلقون بها، ولا مثل ولا هدف على الإطلاق. كانت الحياة هي هدفهم.. وما زالت، ولقمة العيش هي شغلهم الشاغل، وما عدا ذلك ـ في نظر الغجر ـ زيف وبهتان. والغجر يؤكدون أنهم من سلالة مصرية، فروا من مصر في عهد كيلوباترا، وهاجروا سيرًا على الأقدام عبر صحارى شمال إفريقيا حتى وصلوا إلى طنجة ثم عبروا المضيق إلى جبل طارق، ومن هناك انتشروا في أنحاء إسبانيا وبعض أجزاء البرتغال ـ ويستمتع الغجري وهو يحدثك عن أصله وفصله، ولا غرو فهو فرعوني أصيل، والإسباني يؤكد أن الغجر هم بقايا الشعب العربي الذي حكم إسبانيا عدة قرون، وأن هؤلاء الغجر هم سلالة البقية العربية التي فرت من المجزرة ثم عادت بعد أن هدأت الأحوال فوجدت أن كل شيء قد ضاع.. الأرض والحكم والدين، فهاموا على وجوههم ينشدون الأمن والسلام والدعوة التي كانت تعود إلى إبادة العرب ومحو كل أثر لهم في إسبانيا. ولكن الحقيقة.. الحقيقة التي لمستها بنفسي في إسبانيا عكس ما يقوله الغجر والإسبان.

أين الحقيقة؟

الحقيقة أن الغجر طبقة وليسوا جنسًا، وهي طبقة ضائعة مثل الزنوج في مزارع الجنوب في أمريكا، والمنبوذين في الهند، العامل

الإسباني يعمل بعشرة قروش في اليوم والغجري يؤدي نفس العمل بثلاثة قروش لا غير، الغجري محروم من التعليم ومن الثقافة ومن الدواء ومن تقلد الوظائف ومن الراحة والاستقرار وليس هذا مصادفة ولا هو لوجه الله، وإنما هو لصالح الإقطاعيين أصحاب الضياع والمزارع. ففي هذه المزارع والضياع يعمل الإسباني الغجري بأجر لا يكفي ثمن العيش الحاف. وقد يضربه الإقطاعي أو يقتله أو يسجنه أيضًا وهو مطمئن إلى أن يد القانون لا تصل إليه. فالغجري ليس مسجلًا في دفاتر الحكومة، ولا في دفاتر المواليد، ولا في دفاتر الوفيات، ولا في دفاتر التعليم.. وباختصار ليس للغجري عند الحكومة أي وجود. وليس حقيقيًا ما يتصوره البعض من أن الغجر لا يستقرون في مكان، وأنهم يقطعون إسبانيا عرضًا وطولًا في قوافل تتقدمها الراقصات والمطربات، بل الواقع أن الغجر يستقرون حول المدن الصناعية وحول العاصمة، ويقيمون دائمًا في مزارع وضياع أصحاب المناصب والألقاب في إسبانيا، ويعيشون في كهوف ويقتاتون بالحشائش ويدمنون شرب السرسيا؛ وهو شراب يشبه الكافيه في مصر.

من أجل الرسول

والذين لا يجدون عملًا في المزارع والآلاف التي تفصلهم المصانع بالجملة، يهيمون على وجوههم في شوارع مدريد يمدون أيديهم بالسؤال، ويجرون خلف الأمريكان يطلبون بيزيتا من أجل الرسول! وقد لا يصدق القارئ إذا أكدنا أن شحاتي مصر أرقى بكثير من شحاتي إسبانيا، أرقى في اللبس وفي الشكل، وحتى في طريقة

ابتزاز القروش. والسبب أن مدريد ليس فيها محسنون، ولكن فيها عدة آلاف من الأمريكان يتصدقون أحيانًا على شحاتي إسبانيا.. بشرط التقاط صور لهؤلاء للذكرى وللتاريخ!

نور عظيم

ولكن هناك شيئًا غريبًا في وسط هذه البيئة المنحطة القذرة ومن بين هذه الطبقة المطحونة التي امتص دمها النظام الاجتماعي المفروض على الشعب الإسباني، من وسط الخرائب والأطلال يبزغ نور عظيم. هو هذا الطابور المجيد من الفنانين العظام في جميع الفنون، الرقص، والمصارعة، والغناء، إذ إن نسبة الغجر بين هؤلاء الفنانين كبيرة جدًا، بحيث تبدو بالنسبة للحياة التي يحياها هؤلاء الغجر شيئًا غريبًا!

ولا يزال الإسبان يذكرون بالفخر والإكبار المصارع أنطونيو بوليتا.. فخر حلبات المصارعة في العالم كله، والذي بلغ القمة وهو في العشرين، ولقي حتفه وهو في الثلاثين. وترك ثروة طائلة تعيش بها أسرته الآن عيشة المهراجات في قصر فوق ربوة على شاطئ المحيط، وقد بدأت قصة أنطونيو كما تبدأ عادة قصة كل غجري ضائع في إسبانيا، ولد في مزرعة لثري كبير، كان يهوى السياسة ومصارعة الثيران، وتربى أنطونيو في حظائر الثيران، يقدم لها الطعام وينظف الأرض تحت أقدامها.. ويناوشها أحيانًا، ومن هذه المناوشة تعلم الصراع.. وأثار ذكاء الطفل وشجاعته حماس المليونير العجوز، فقدمه وهو في الخامسة عشر من عمره ليقدم ألعابه في «بلاسادي توروس» في مدريد. وكانت تلك الليلة بداية مجده.

ظهرت صحف مدريد في الصباح وصـورة أنطونيو تحتل صفحاتها الأولى، وأصبح أنطونيو حديث الناس في كل مكان.

وعندما بلغ العشرين من عمره كان على رأس قائمة المصارعين في إسبانيا. وطاف أنطونيو ببلاد أمريكا اللاتينية، وجمع ثروة قدرت بعدة ملايين من البيزتات. وفي عامه الثلاثين كان يلعب في ميدان المصارعة في بيرو أمام مائة ألف متفرج. ولعب أنطونيو يومها كما لم يلعب من قبل، في نشوة حماس وفخر التفت إلى الجماهير الصاخبة يرد عليها تحيتها، وفي هذه اللحظة هاجمه الثور من الخلف، وغرز قرنيه في ظهره، ولم يتركه حتى مات. وكل فرد في إسبانيا ـ وخاصة الفتيات ـ يذكر هذه القصة، رغم أنها انتهت منذ أعوام كثيرة. ولا تزال صورة أنطونيو تحتل جدران المقاهي والمحلات والفنادق وميادين المصارعة في كل مكان.

الكونتيسة

وإلى جوار أنطونيو ظهرت عبقريات أخرى فذة في عالم الموسيقى والغناء: لولا فلوريس، وكارمن سيفيليا، وفاريتا. الأولى رقصت على جميع مسارح أوربا، وبدأت حياتها في جميع مقاهي الغجر وانتهت إلى أن أصبحت كونتيسة ومواطنة شرف لأكبر مدن العالم. والثانية غنت وغنى خلفها شعب إسبانيا وكل شعوب أمريكا اللاتينية، والأخير فاريتا لارتيستا، لا يزال شابا في الخامسة والعشرين من عمره، ولكنه يعتبر اليوم أعظم مطربي إسبانيا على الإطلاق. ولقد أتيح لي أن أستمع إلى فاريتا لمدة ساعة كاملة في مسرح «الكلندي رون» كان يغني بصوت قوي يعيد إلى الأسماع

صوت كاروزو.. العظيم. وكان غناؤه فلمنكو، وهو نوع من الغناء سمعته في المغرب، غناء عربي أصيل كما يبدو من طريقة تلحينه، وهو غناء كله شجن وكله حزن، وكله دموع وآهات!

باب إلى الراحة

هل انتهينا من الغجر؟ كلا.. فهناك حقيقة كبرى يجب أن نذكرها، وهي أن العمال الإسبان المتعطلين والشبان الذين فقدوا أنفسهم في الحياة، والذين بلا عمل ولا أمل ولا مأوى، هؤلاء يهرعون بقوة نحو أحياء الغجر، يعيشون فيها مدة، ثم يصبحون غجرًا بعد قليل. والسبب أن الذين بلا عمل ولا أمل ولا مأوى في مدريد يطاردهم رجال البوليس.. أدق وأقسى بوليس في العالم، وقد يقذف بهم إلى المنفى بلا سبب على الإطلاق! هؤلاء الناس اكتشفوا أن خير طريقة للسعادة والراحة هي الهجرة إلى أحياء الغجر والانضمام إلى تلك الطبقة المطحونة التي لا تمتد إليها يد رجال البوليس ولا تطاردها قوانين الحكومة. حكاية قريبة جدًا من دراويش الحسين والسيدة زينب.. متسولون؟! نعم، ولكن لهم امتيازات عند رجال البوليس، لأنهم من الأحباب، أحباب الله!

الفقر هو السبب

والغالبية العظمى من نساء الغجر على درجة كبيرة من القبح وبشاعة الخلقة والتكوين، والسبب طبعًا الفقر الذي يعيشون فيه.. ولا سبب سواه.. ورجالهم كذلك ضعاف البنية، تدهمهم الشيخوخة وهم بعد في ريعان الشباب، ويقضون النهار بطوله في

نوم عميق، ويسهرون الليل كله حول موائد القمار في المقاهي الحقيرة، ويصرخون في الفجر على طريقة.. أنا جدع! من تأثير شراب السيرسيا القاتل.. ولكن هؤلاء الرجال قدموا أبطالًا وشهداء في الحرب الأهلية، واستشهد من هؤلاء الغجر عدة ألوف، وفر منهم عدد آخر إلى فرنسا، أما الذين فروا إلى البرتغال فقد سلمتهم حكومتها إلى فرانكو، فقدموا جميعًا إلى محاكمات لم تستغرق دقائق صدر عليهم الحكم بعدها بالإعدام. ولا يزال الغجر يذكرون بطلهم الخالد «باليما كراكول» قائد قوات الشعب في إقليم كتالونيا، الذي فقد خلال المعارك ساقه اليمنى، ثم ساقه اليسرى، ثم فقد عينيه قبل أن يلفظ آخر أنفاسه في المعركة.

التاريخ الساحر

هذه هي الصورة الحقيقية للغجر لمستها بنفسي في مدريد وحول توليدو وسيفيليا وعلى قمم جبال الحثيرت أجمل مدن الجنوب، وهي صورة بشعة تخالف تمامًا الصورة التي قدمتها هوليوود عن هؤلاء الغجر في أفلام القاتلة وغراميات كارمن، ودماء ورمال.

ولقد سألت أحد رجال الغجر عن رأيه في أفلام هوليوود فأجابني وشبح ابتسامة باهتة على شفتيه:

أفلام هوليوود.. إنها هراء.. هراء.. تمامًا مثل أسلوب الحياة التي يعيشونها!

مصارعة الثيران

«صناعة وسياسة»

عشرات الآلاف من السواح الأمريكان تستقبلهم مدريد في كل

عام، ومن أجل هؤلاء تسهر مدريد حتى الصباح، وتظل الحركة في شارع خوزي أنطونيو طول الليل على قدم وساق... وأول شيء يسأل عنه السائح الأمريكي في إسبانيا هو شارع خوزي أنطونيو وبلاسادي توروس، أو ميدان مصارعة الثيران.

جراحة مصارعة الثيران

ويخطئ من يظن أن مصارعة الثيران رياضة مثل كرة القدم أو المصارعة أو شد الحبل.. مثلًا، إنها في إسبانيا صناعة تفوق في الأهمية صناعة الخزف والزيت.

ويعمل في هذه الصناعة المهمة أكثر من نصف مليون عامل بين رعاة وعمال زراعة في المزارع الفسيحة التي يقيم فيها الثيران، وعمال الملاعب، والخدم، وصناع السيوف والرايات وملابس اللاعبين، والأطباء الذين لا يعرفون من فن الطب شيئا سوى جراحة مصارعة الثيران. وفي كلية طب مدريد قسم كامل لهذه الجراحة، لا يتعلم فيه الطلبة شيئا سواها!

المعجزة

وفي كل ملعب من ملاعب المصارعة مستشفى ملحق به له أطباؤه الخصوصيون الذين أمضوا من الدرس للتغلغل في أعماق هذا الفرع من فروع الجراحة. والذين يقضون على خطر طعنة الثور في أيام، ما دامت الطعنة بعيدة عن القلب، ويحدث أحيانًا أن يحمل المساعدون «ميتادورا» صرعه الثور وغاص بقرنه في

أحشائه إلى المستشفى الملحق بالملعب، ثم فجأة يعود الميتادور إلى الملعب وكأن شيئا ما لم يحدث له. وإذا سألت عن السر، يجيبك الإسبان الذين يجلسون إلى جوارك.. بأن المعجزة تمت داخل المستشفى الصغير.

بالدماء

وتستطيع أن تشاهد اللعبة يومين كل أسبوع، يوم الأحد ويوم الخميس. وفي صباح اليوم الذي يدور فيه اللعب تفتح مكاتب بيع التذاكر أبوابها.. ثم تغلقها بعد دقائق، لأن جميع التذاكر تنفد بعد عشر دقائق ولا تزيد، ثم يبدأ عرض التذاكر من الأبواب الخلفية، في المقاهي، والحانات، ومحلات بيع اليانصيب، ويرتفع ثمن التذكرة في هذه الحالة إلى الضعف، وأحيانًا إلى ثلاثة أضعاف، وقد يحدث خلال هذا مشاجرات، ويسيل دم المئات.. والسبب تذاكر مصارعة الثيران!

في دلال

ويبدأ اللعب في السادسة، ويضيق الملعب ـ على سعته ـ بالآلاف، ويحضر اللعب مندوب من الحكومة يجلس في المقدمة مع كبار الضباط. وتعزف الموسيقى قبل اللعب وخلال الاستراحات، ويشترك في كل لعبة أكثر من ثلاثين مصارعا على رأسهم الميتادور، وهو الذي يتقدم في النهاية بقتل الثور بسيف في يده، ثم ينحني للجماهير يرد تحيتهم في دلال الغواني!

ثم تبدأ اللعبة

وقبل أن ينطلق الثور من مكانه، ينتشر في أنحاء الملعب أكثر من ثلاثين رجلا في ملابس مختلفة الألوان وفي يد كل منهم شال أحمر من الحرير، وفي ركن من أركان الملعب يتربص لاعب آخر في ملابس فرسان العصور الوسطى، ممتطيا حصانا وضعت على ظهره شبكة من الحديد تحميه من هجمات الثور عندما يفقد عقله.. ويجن. وتبدأ اللعبة عندما ينطلق الثور هائجا مفترسا كأنه وحش، ويتبادل اللعب معه الرجال الثلاثون المنتشرون في الملعب حتى يكلّ الثور ويمل ويصبح من كثرة ما لف ودار عازفا عن المحاورة والصراع! عندئذ.. عندما يصبح الثور في حالة إنهاك وإغماء، يتقدم إليه رجل على ظهر حصان ليغرز في ظهره حربة طويلة بقسوة، فينفجر الدم حتى يغطي ظهر الثور ويغطي الأرض التي يقف عليها!

عندما يصرخ الثور

عندئذ يفقد الثور عقله ويجن، وينطلق في ثورة مجنونة يهاجم الحصان بعنف، ولكن شبكة الحديد التي تحمي ظهر الحصان تؤذي قرون الثور وتزيد من آلامه، وكذلك من ثورته وجنونه، فينطلق بشدة نحو الرجال المنتشرين في أنحاء الملعب فيهاجمهم محاولا الانتقام. والذين يصمدون أمام الثور قلة ويفر الآخرون هربا من وجه الثور ويتركون الملعب كله قفزا عبر الأسوار. ويظل الذين صمدوا له يحاورونه ويداورونه والثور يلهث من الإعياء ويزوم من الألم، ويصرخ صراخا متقطعا أشبه بصراخ جريح يحتضر، ثم يتوقف أخيرا عن المهاجمة عندما يدرك أنه لن ينال منهم، وعندما يكون الألم الذي سببه الجرح في ظهره قد بلغ منتهاه!

أولليه

وهنا يخلو الملعب تمامًا إلا من الثور الجريح الذي يلهث وهو ينزف دما، ثم يظهر في الملعب لاعب وحيد يحمل معه عِصِيًّا رفيعة تنتهي كل منها بحربة مدببة. ويتقدم اللاعب من الثور حتى يصير أمامه، ثم يأتي بحركات تحدٍّ وعدم مبالاة حتى يحرك ثورة الثور فينطلق نحوه بأقصى سرعة مهاجما إياه. ويظل الرجل واقفا مكانه لا يتزحزح حتى يصبح الثور على بعد سنتيمترات، وهنا يقفز اللاعب وهو يرشق بخفة ورشاقة زوجا من العصي الرفيعة التي تنتهي بحراب مدببة في رأس الثور. وإذا نجح اللاعب تصرخ الجماهير في جنون وهي تهتف في نشوة: أولليه.. أولليه، ومعناه باللغة الإسبانية.. الله! ويكرر اللاعب هذه العملية ثلاث مرات، حتى تصبح مجموع العصي المدببة التي تنتهي بحربة ست عصي، داخل رأس الثور. عندئذ تنتهي مهمته فيخرج سريعا من الملعب، ليخلو من جديد إلا من الثور الهائج الذي ينزف دما من رأسه.. وينزف دما من ظهره ويدور حول نفسه في جنون باحثا عن السبب الذي يؤلمه ويدميه!

دعوة للقتال

ويرتفع خلال هذه اللحظات صوت الموسيقى بلحن غريب وأنغام وترية صارخة كأنها دعوة إلى الحرب والنزال، وموسيقى غريبة تصرخ في وحشية فتصرخ لها أعصابك المتوترة وتزيد من جنون الثور، وعندئذ يدخل «المتيادور» وهو نجم اللعبة، يقطع الطريق من الباب إلى المنصة الرئيسية في خطوات عسكرية أشبه بخطوات الإوزة الألمانية، مرتديا لباسا غريب الألوان من قطعتين..

صديري وبنطلون تزينهما قطع الفضة اللامعة، وقد شد على وسطه حزاما صارخ اللون، وعلى رأسه قبعة سوداء تبدو على أحد جوانبها ريشة تهتز كلما قطع خطوة على أرض الملعب!

وتبدأ المصارعة

وعندما يصبح «الميتادور» أمام المنصة ينحني في رشاقة ويخلع القبعة ذات الريشة السوداء، ثم يستدير إلى الخلف وفي يده الشال الأحمر، ومن تحت الشال السيف الذي سيجهز فيه على الثور وتبدأ المعركة بين ثور مطعون في ظهره ومغروز في نافوخه ست حراب، والدم ينزف من أجزاء كثيرة من جسمه والإعياء يسلب قوته، والموسيقى تشعل النار في أعصابه، وصراخ الجماهير المحمومة يسد أذنيه، وبين «ميتادور» بكامل قوته وعافيته وفي يده سيف. والحقيقة التي اكتشفتها في إسبانيا أن كل من يحمل لقب «ميتادور» ليس فرضا واجبا أن يحذق فنون اللعبة أو أن يستطيع أن يخرج مباراة نظيفة تهتز لها الجماهير، والذين يبلغون هذا المستوى من «ميتادورات» إسبانيا لا يزيدون على العشرين، والآخرون بالنسبة لهؤلاء مثل فريق كرة القدم المصري بالنسبة لفريق المجر!

نهاية الثور

وتبدأ اللعبة بهجوم خاطف من جانب الميتادور على الثور ليحمله على أن يبادل الهجوم بهجوم، ويمتثل الثور المسكين فيهاجم، ولكن «الميتادور» لا يفزع ولا يجري ولا يغادر مكانه، بل يدور في رشاقة والسيف في يده، والثور يهاجم في استماتة، ثم يهاجم في يأس، ثم يهاجم لمجرد أنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى

الهجوم. كل هذا والجماهير المحمومة المجنونة تصرخ، وكأن زلزالا قد شق الأرض تحت أقدامها، وتعوي كأنها قطيع من الذئاب تطارده فرقة من الجنود.

وفي خفة ورشاقة يستل «الميتادور» سيفه من خلف الشال، ولكن الجماهير تصرخ وقد هبت واقفة على أقدامها تطالبه بمواصلة اللعب، فيلتفت إليها في رشاقة وينحني في دلال ويعيد السيف مكانه ويبدأ محاورة الثور من جديد. وهناك من يجيد اللعبة لدرجة أنه يهاجم الثور بظهره، وبعضهم يهاجم وهو مستند بظهره إلى جدار، وبعضهم وهو راكع على ركبة ونص، وهؤلاء يبلغ دخلهم السنوي عدة ملايين من البيزيتات، وتنتهي اللعبة بأن يستل الميتادور سيفه من جديد ويقف كأنه سيف رشق في الأرض، ثم يصرخ في الثور فينطلق نحوه هائجا، وفي لحظة يغوص السيف في رأس الثور حتى مقبضه. وهنا يقف الثور وقد أغلق عينيه وفتح فمه، وتدفقت الدماء غزيرة على شفتيه، ثم يتراجع خطوة إلى الخلف يسقط بعدها ميتًا، وفي الحال تدخل الملعب عربة تجرها ستة خيول، ثم تغادره وجثة الثور مشدودة إليها، وهتاف الجماهير يتصاعد في الجو ويغطي أنغام الموسيقى الصاخبة التي تشد الأعصاب!

الأبواب الخلفية

ولكي يكون الإسباني مؤهلا للعب «ميتادور» فعليه أن يمارس منذ الطفولة تدريبا شاقا عنيفا على كل أنواع الرياضة: السباحة.. الملاكمة.. المصارعة.. الجري.. كرة السلة، ثم يعيش فترة من حياته في مزارع الثيران ليعرف عاداتها ونقاط الضعف فيها ومصدر

الخطورة منها، وعندما يبلغ الثامنة عشرة، يستطيع أن يتقدم لامتحان شاق إذا اجتازه حمل لقب «ميتادور» وأصبح من حقه ممارسة مصارعة الثيران. ويعتزل الميتادور العمل عندما يبلغ الثلاثين، بعضهم يقضي حياته كلها في بحبوحة من العيش، بفضل الملايين التي درتها عليه اللعبة. والذين لم يصادفهم الحظ يضطرون لدخول الملاعب من الأبواب الخلفية، مع الرجال الذين ينهكون الثور في البداية، أو ممتطيا ظهر حصان وفي يده حربة طويلة وعلى جسده ملابس فرسان العصور القديمة!

العمل والمصارعة

ولكي ندرك أن لعبة مصارعة الثيران ليست مجرد لعبة كالسباحة وكرة القدم، يجب أن نعرف أن في إسبانيا أكثر من صحيفة تصدر وليس فيها سوى أنباء مصارعة الثيران وأخبار المصارعين وتنقلاتهم، وهي صحف قوية ومنتشرة وتصل إلى كل مكان في إسبانيا وبلاد أمريكا اللاتينية.

وينحصر اهتمام الإسباني في شيئين: الحصول على عمل، والحصول على تذكرة لمشاهدة مصارعة الثيران. وإذا حدث وسقط ميتادور صريعا أثناء النزال، فإن راديو مدريد يقطع إذاعته العادية ليذيع الخبر على الناس، فإذا خرجت جنازة الميتادور القتيل، خرجت المدينة كلها تشيعه. وإذا تزوج الميتادور فإن إسبانيا كلها ترسل له الهدايا وبرقيات التهاني بالرفاء والبنين. فإذا مرض ظلت إسبانيا كلها تتحدث عنه، وتراقب تطورات مرضه وتسأل عنه في كل حين.

أداة الحكم

وفي كل مدينة في إسبانيا، وكذلك في كل قرية، ملعب لمصارعة الثيران، وبطاقات إسبانيا التي يرسلها السائح لأهله لا تحمل إلا مناظر لمصارعة الثيران، والحديث الذي يدور بين الناس في المقاهي وفي الترام وفي المترو لا يدور إلا عن مصارعة الثيران، إنها محور حياة الشعب الإسباني. ولذلك هي ليست لعبة فقط، وليست صناعة فقط، ولكنها في الوقت نفسه أداة من أدوات الحكم في إسبانيا.

الكنيسة والثيران

فالإسباني الذي لا يستطيع أن يشترك في مظاهرة، لأن المظاهرات كلها ممنوعة، ولا يجرؤ على أن يعلن عن رأيه، لأن الصحف كلها تحت الرقابة الشديدة، ولا يتمكن من الحديث في السياسة، لأن الحديث في السياسة رجس من عمل الشياطين، هذا الإسباني المكمم الفم المعصوب العينين يجد في حلبات المصارعة متنفسا له، وفي الدم المراق راحة لنفسه، وفي الضربات التي يكيلها المصارع للثور أو التي يوجهها الثور للمصارع تعويضا عما يعانيه. ولذلك في إسبانيا يقولون: إن فرانكو يحكمنا بالكنيسة وبالثيران!



ولأني حمقري (مزيج من الحمار والعبقري) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلّاس.. ولأني حمقري كنت أرفع شعارًا حمقريًّا «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تقرقع على لسانه تقرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفتيه تتجدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضًا حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطيبة على الجبين، والرعشة في أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. ياالالي! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، اكسسوارًا يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوسًا أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضي.. وهي تظل إلى آخر لحظة في الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضي الإنسان صاحب الحزن العظيم - ككل شيء في الحياة - يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يذاع له سر، وقد يمضي بسره إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكي وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضًا ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضاحك إذا كان حزينًا
في الأعماق صار عبقريًّا، وإذا كان مجدبًا من الداخل أصبح بلياتـ
قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظًّا في إنتاج المضحكين.. مصر العـ
جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع
كبالونة منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهم
وبعضهم مثل الذهب القشرة.




6 221102 026567

دار الشروق
www.shorouk.com